الشرارة

لا حركة ثورية
بدون نظرية ثورية

العدد الخامس

غشت 2019

فلاديمير إيليتش أوليانوف - لينين

الدولة والثورة

من تقديم علي محمود

المركز الماركسي - اللينيني للدراسات والأبحاث والتكوين

يصدر موقع الشرارة الماركسي ـ اللينيني العدد الخامس من كراسات الشرارة، والذي تم تخصيصه بالكامل لملف "الدولة والثورة".

يتضمن هذا العدد تقديما ومقالتين كان الموقع قد نشرهما سابقا ضمن ملف الذكرى المئوية للثورة البلشفية الاشتراكية العظمى، تحت محور:

لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية

أهمية سلاح النظرية في بناء الحزب البلشفي و قيادة الثورة الاشتراكية العظمى في روسيا

سلسلة ملخصات ومقالات حول أهمية النصوص اللينينية التي ساهمت في بناء الحزب الاشتراكي الديموقراطي العمالي البلشفي الروسي

محاور العدد الخامس

الدولة والثورة: التاريخ والسياق العام ..... بقلم: علي محمود 4

ملخص كتاب الدولة والثورة ..... بقلم: حمو خالد 14

تقديم

1-الدولة هي نتاج استعصاء التناقضات الطبقية

2-فصائل خاصة من رجال مسلحين، وسجون

3-الدولة أداة لاستغلال الطبقة المظلومة

4-الثورة العنيفة واضمحلال الدولة

قراءة في إشكالية الدولة في الماركسية ـ اللينينية ..... بقلم: أحمد فارس 33

في السياق

1. الدولة إشكالية بالغة التعقيد

2 . الدولة في الماركسية: مواجهة التيارات التحريفية

3 . البحث في الدولة: هل هي مسألة ملحة بالنسبة للماركسيين اللينينيين.

4 . تصورات غير مادية حول الدولة

5 . فلادمير لينين: الدولة والثورة ومهمات البروليتاريا، "اضمحلال" الدولة وخبرة كومونة باريس 1871

الدولة والثورة

"من وجهة النظر البورجوازية المبتذلة، فمفهوما الدكتاتورية و الديموقراطية ينفي أحدهما الآخر". لينين

التاريخ و السياق العام

خلال غشت 1916، كان لينين في منفاه بسويسرا، و كانت هذه الفترة من مساره الثوري تعرف خصوبة كبيرة من حيث الإنتاج الفكري، و من حيث النشاط العملي - كانت الفترة فترة حرب امبريالية، و كان لينين يحارب الاتجاهات الوطنية الشوفينية داخل الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية، المنتمية إلى الأممية الثانية، كما حصل في ندوتي زمروايلد و كينتال- و من حيث النشاط النظري الذي كان كثيفا،أنتج لينين نصوصا ذات أهمية كبيرة،من قبيل **"أطروحات حول حق الأمم في تقرير مصيرها"، "الاشتراكية و الحرب"، "إفلاس الأممية الثانية"، "الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية"**، و إلى جانب هذا النشاط النظري، زاوج لينين النشاط العمومي و النشاط المكتبي.
لقد كان لينين، هذا الداعية الثوري الشهير، "فأر مكتبات"، يسود دفترا تلو دفتر، حيث يضع ملاحظاته. و هكذا، فمن علم المنطق إلى الفرضية البيوجينية، و من أفكار نابليون إلى ميتافيزيقا أرسطو، و من الديالكتيك إلى الرأسمال المالي، و كانت الحصيلة:

1) **"دفاتر الامبريالية"** (المجلد 39) : 148 عملا، 232 مقالا بأربع لغات، حوالي 1000 صفحة مطبوعة، هناك تحليل ملموس لواقع ملموس، كان لينين يبلور الأدوات العلمية لتغيير العالم بالمعنى الدقيق، في وضع كان فيه العالم تحت قعقعة السلاح، التي كانت تخفي العنف الرأسمالي أو عنف علاقات الإنتاج الرأسمالية، هذا العنف الذي جرف معه الحركة العمالية نفسها، التي أصبحت تعاني من ضبابية و عمى أحسن قادتها. في ظل هذا الصخب العام، فإن إدراك تفكك النظام القديم، و الانتباه إلى الشقوق و مساعدتها لكي تتسع، و ذلك عبر تحويل الحرب الامبريالية إلى حرب مدنية أهلية، و تهيء ظروف مجيء سلطة البروليتاريا، كل هذه الأسئلة كانت تتشابك و تتداخل فيما بينها، و كان مطلوبا التفكير فيها بشمولية.

2) **"دفاتر فلسفية"** (مجلد 38)، و قد تراكمت مادتها في نفس الوقت الذي كانت تتراكم فيه مادة الوثائق التهييئية لكتاب **"الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية"**.

3) لقد أصبح ضروريا أن يصبح الثوريون بالضرورة، قادرين على التحكم في الأسس النظرية لاستراتيجيتهم، و هذا يعني:

- **وضع خط فاصل مع الفوضوية، خاصة فيما يخص أطروحاتها الغامضة حول "القضاء على الدولة"[1].**
- **مجابهة الانتهازية و أطروحاتها الغامضة حول "استعمال" الدولة.**

---

1 ـ تطورت و توطدت الماركسية من خلال صراعها ضد منوعات الفكر البورجوازي الصغير، و قد عرف القرن 19 و بداية القرن 20 صراعا مريرا بين الماركسية و الفوضوية حول مفهوم الدولة، و كان للفوضوية تأثيرا مهما داخل الشرائح غير الناضجة من الطبقة العاملة، و عموما، كانت الفوضوية من حيث جوهرها تتميّز بطابع رجعي، لأنها لم تكن موجهة فقط ضد الدولة البرجوازية فحسب، بل أيضا ضد الدولة البروليتارية، فقد كانوا يطرحون ضرورة القضاء على الدولة و إلغائها حالا دون الأخذ بعين الاعتبار الظروف التاريخية الموضوعية، و قد وجه ماركس و انجلز سهام نقدهما الحاد للنظرات الفوضوية للدولة، التي كان يروج لها الثوري الروسي باكونين. و قد تصدى كذلك لينين و البلاشفة للفوضوية.

- بطريقة أخرى، إزاحة التذبذبات من رأس الاشتراكيين، و على رأسهم البلاشفة فيما يخص دكتاتورية البروليتاريا[2].

==> و كانت هذه الأهداف هي موضوع "الدفتر الأزرق"، الذي كان لينين يوليه أهمية كبرى لحد الهوس.

هيئ لينين مادة كتابه هذا، من خلال الوثائق و الملاحظات، التي سطرها، و ذلك في مكتبة زيوريخ، إلى حدود نهاية فبراير – بداية مارس 1917، لكنه توقف لما سمع بخبر ثورة فبراير 1917 بروسيا، فبحث عن طريقة للعودة إلى البلاد، و في عربة

2 . في كتابه "مقدمات الاشتراكية" اتهم الأب الروحي للتحريفية العالمية إدوارد بيرنشتاين، الماركسية بالبلانكية (لأنها تتميز حسب رأيه بالنشاط السري، التآمري). و عند تناوله ل"كومونة باريس"، قام بخلط الماركسية بالبرودونية (الاحتجاج الراديكالي البورجوازي الصغير على الدولة بوصفها حامية مصالح البورجوازية الكبيرة)، و تهرب بيرنشتاين، كما قال لينين، من مسألة تحطيم جهاز الدولة البورجوازية الاضطهادي. و قد كان هذا الموقف الإصلاحي، الموقف السائد، لا في الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني فحسب، بل أيضا في الأحزاب الاشتراكية في البلدان الأخرى. لقد أشار لينين في إحدى المرات إلى أن هذه الأحزاب، تتميز بالسجود الخرافي أمام الدولة البورجوازية، و بإنكار ضرورة تأسيس دولة بروليتارية اشتراكية.
و كانت نظرات كاوتسكي تمثل الخطر الأكبر، لكونه كان أحد أبرز منظري الحركة الاشتراكية الديموقراطية العالمية، و لم ينج هو الآخر من الانزلاق، كما قال لينين في جميع مسائل نضال البروليتاريا الطبقي، بما فيه مسألة الدولة البرجوازية (انظر في هذا الصدد كتاب "الثورة الاشتراكية و المرتد كاوتسكي، لينين).

و في روسيا، كان المناشفة و الاشتراكيون الثوريون يتبنون آراء البورجوازية الصغيرة في مسألة الدولة، و قد ظهر ذلك جليا في مرحلة الثورة البورجوازية الديموقراطية في فبراير 1917، و قد كتب لينين يقول " ... و هكذا،عندما طرحت في ثورة 1917 مسألة شأن الدولة، و دورها بكل خطورتها، عندما طرحت عمليا، باعتبارها مسألة عمل مباشر، و في النطاق الجماهيري، انزلق جميع الاشتراكيين الثوريين و المناشفة، جميعهم، دفعة واحدة و دون تحفظ، نحو النظرية البورجوازية الصغيرة القائلة بأن "الدولة" "توفق" بين الطبقات. كما انتقد لينين النظرات الانتهازية إلى الدولة المنتشرة داخل الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية قائلا : "... و لم يقتصر الأمر على نسيان خبرة الكومونة، بل

القطار المصفحة، كتب **"أطروحات نيسان"**، التي شكلت الترجمة الأولى في برنامج سياسي ل : **"جمهورية مجالس مندوبي العمال و الفلاحين في البلاد كلها من القمة إلى القاعدة"** (مجلد 24، ص 13)، وكذلك تفكير ه حول الدولة، و حول خصوصية تجربة "كومونة باريس".

توقف لينين في طريقه إلى روسيا في ستوكولهم، قبل أن يعبر الحدود الروسية، فترك دفتره الأزرق في أيادي أصدقاء أمينين. و إلى حدود صيف 1917، جرفت الأحداث لينين في تطورات متلاحقة، فعند يوم 7 يوليوز، أصدرت الحكومة المؤقتة مذكرة اعتقال في حق لينين، لكن هذا الأخير، الذي انحاز إلى موقف الحزب، رفض أن يغامر في تقديم نفسه أمام المحاكم، و في يوم 11 يوليوز عاد إلى السرية، و اختفى عن الأنظار، و استقر في مكان قريب من بحيرة رازليف في خيمة هيأها إيمليانوف، و كان معه زينوفييف، وقبع لينين في هذه الخيمة لمدة شهر، و كانت فكرة إنهاء كتابه حول الدولة لا تفارقه. و هكذا عن طريق مبعوثين، استطاع لينين أن يربط الاتصال بالخارج، و أن يستعيد دفتره الأزرق، حيث غمرته فرحة عارمة حين توصل به، لكن ما أن انطلق لينين في صياغة كتابه "الدولة و الثورة" حتى توقف عن ذلك.

كان الوضع الأمني يستدعي مغادرة رازيليف للتوجه إلى مكان آخر أكثر أمانا في فنلندا، هكذا صعد لينين إلى القطار ليقطع، متخفيا، الحدود، و لم ينس ان يضع الدفتر الأزرق لدى شوطمان، و طلب منه ان يحرص عليه مثل بؤبؤ عينيه، و يحكي هذا الأخير قائلا :

إنما تعداه إلى تشويهها. إنهم لم يبينوا لجماهير العمال أنه تقترب الساعة التي يتوجب عليهم فيها أن ينهضوا و يحطموا آلة الدولة القديمة، و أن يستعيضوا عنها بجديدة، محولين بهذا الشكل سيادتهم السياسية إلى قاعدة لتحويل المجتمع على أساس اشتراكي، بل كانوا يلقنون الجماهير النقيض، و قد فسروا "الاستيلاء على السلطة" بشكل يترك ألف منفذ للانتهازية".

"عندما وصلنا إلى نهاية الطريق من الجهة الأخرى من الحدود، و عندما كنا نحيي أنا و راهيا لينين في أسفل القاطرة، كانت كلمته الأولى هي سؤاله عن حالة الدفتر، هل كان في حالة جيدة، و بعدما استرجعه دسه في صدره".

هكذا، بعد استقراره في هيلسينغفورس مع دفتره الأزرق، و ذلك عند رسام اسمه روفيو، ابتدأ لينين من جديد في صياغة كتابه "الدولة و الثورة"، و مرة أخرى سيتوقف عن ذلك، و قد كانت ثورة أكتوبر تقترب يوما عن يوم.

منذ ان قام البوليس الروسي بتفتيش لدى كروبسكايا، وجد ورقة صغيرة مكتوبة بيد لينين، موجهة إلى كامنيف تحت عنوان : "بيننا" تقول : **"في حالة ما إذا قتلت أطلب منك أن تنشر دفتري "الماركسية و الدولة" (بقي في ستوكولهم)، إنه دفتر مجلد بغلاف أزرق، كل مقتطفات ماركس و انجلز، و كذلك كاوتسكي ضد بانيكوك قد تم تجميعها، هناك مجموعة من الملاحظات و الإشارات و البلورات، أظن أنه يمكن نشر الكتاب في أسبوع، و أعتبر أن ذلك أمرا مهما، ذلك أن بليخانوف و كذلك كاوتسكي قد قاما بخلط كل شيء. الشروط : كل هذا يبقى بيننا في المطلق".**

لم ينتظر لينين صيف 1916 ليعالج موضوع الدولة، فعبر كتاباته السابقة، كانت الدولة حاضرة في تصوراته و أطروحاته المختلفة، وابتداءا من كتاب **"من هم أصدقاء الشعب"**، حيث أشار لينين لأول مرة الى "كومونة باريس" (1894)، و صولا إلى مقالة "في التعاون" الصادرة في سنة 1923، حيث يقدم لينين حصيلة "السياسة الاقتصادية الجديدة" (نيب)، هناك حوالي 96 كتابا و وثيقة و مقالا.

و قد تدرجت كما يلي :

- ضرورة النضال بلا هوادة ضد السلطة القيصرية، من أجل القضاء على الدولة الإقطاعية، و بناء نظام ديموقراطي، يفتح الطريق إلى الاشتراكية، و لذلك احتل مطلب و شعار الجمهورية أولوية.

- تحديد طبيعة السلطة السياسية للطبقة العاملة، باعتبارها دكتاتورية البروليتاريا، الشرط السياسي الضروري للثورة الاجتماعية (مشروع برنامج الحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي لروسيا، يناير 1902).

- إن هذا التحديد سيتم تدقيقه، باعتبار الدولة دكتاتورية ثورية ديموقراطية للبروليتاريا و الفلاحين (انظر جريدة "إلى الأمام"، 12 أبريل 1905، مجلد 8، ص 294 و ما يليها)، و قد ارتبط الموضوع عند لينين بالخصوصيات الروسية، التي كان يؤكد عليها دائما، مما كان يستدعي مجموعة من التوضيحات:

*** فيما يخص الدور الهيمني للبروليتاريا : "باعتبارها الطبقة الثورية حتى النهاية في المجتمع الحديث"، عليها أن تثبت هيمنتها في نضال الشعب بأكمله، من أجل قلب ديموقراطي شامل، خلال نضال كل العمال و المستغلين ضد المضطهدين و المستغلين (مجلد 17، ص 234) .**

*** فيما يخص التحالف الطبقي بين البروليتاريا و الفلاحين الفقراء (انظر: "هدف نضال البروليتاريا في ثورتنا"/ مجلد 15، ص 385 و ما يليها) .**

*** فيما يخص الانتقال المزدوج من الأوتوقراطية إلى الديموقراطية البورجوازية، و من هذه الأخيرة إلى الديموقراطية البروليتارية (انظر المجلد 16، ص 207 و ما يليها).**

*** فيما يخص "كومونة باريس"، و قد تم اعتمادها بشكل أساسي في كتابه "الدولة والثورة"، بالإضافة إلى ثورة 1905، و ذلك من أجل التهييء النظري حول مسألة الدولة، بارتباط مع دروس المبادرات الجماهيرية (تجربة السوفياتات) (انظر المجلد 41، ص 9 و ص 13) .**

*** بمناسبة كتابه حول ماركس سنة 1914، قام لينين بوضع النقط حول إشكالية الدولة (مجلد 21، ص 68 -69)، و قد استعمل لينين كتابي انجلز "أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة" و "ضد دوهرينغ")، و قد سجل ما يلي : ارتباط**

العنف المنظم بالمجتمعات الطبقية، فكل دولة هي دولة طبقية، و الاشتراكية ستقضي على الدولة و على الطبقات، و يتعلق الأمر بسيرورة اختفاء (انقراض، انتهاء، تصفية) تؤدي إلى وضع آلة الدولة في متحف الآثار القديمة إلى جانب عجلة الغزل و فأس البرونز، حسب تعبير انجلز.

*** في بداية 1916، في أطروحاته حول الثورة الاشتراكية و حق الأمم في تقرير مصيرها، كتب لينين يقول :**

"أجل، إن الديموقراطية هي كذلك شكل الدولة، حيث ستختفي حينما تختفي هذه الأخيرة، و هذا لن يحصل إلا خلال الانتقال من الاشتراكية المنتصرة نهائيا و المتبثة، إلى الشيوعية الكاملة" (مجلد 22، ص 156).

*** لحد الآن لم يكن لينين قد اشتغل منهجيا على نصوص ماركس و انجلز حول الدولة، و بالأخص، لم يركز بعد على إشكالية كسر الدولة، ابتداءا من وضع دكتاتورية البروليتاريا، أي إشكالية العلاقة الضرورية بين الكسر و الاضمحلال، أي ظاهرة نصف دولة مقدمة للثانية.**

لقد كانت مسودة غشت – شتنبر 1917 محاولة لإخراج دفتر زيوريخ، محاولة ديداكتيكية نظرية استثنائية، حاولت في مسألة أساسية، أي مسألة الدولة، أن توحد مجموعة من النصوص متفرقة ب **"امتداد 50 سنة من "بؤس الفلسفة" 1846 إلى مقدمة انجلز لإعادة نشر كتاب "الحرب الأهلية في فرنسا" لماركس، 1891 .**

ملحوظات :

1 – لم يستعد لينين كل النصوص الواردة في الدفتر الأزرق في كتابه "الثورة و الدولة"، و منها مجموعة من رسائل ماركس إلى كوجلمان و فرانكيل و فارلان، و كذلك رسائل انجلز إلى برنشتاين و لافارغ، و كذلك مقدمة انجلز لمنشور بورخايم تحت عنوان "في ذكرى الوطنيين الألمان القتلة"، و كذلك صفحة انجلز المأخوذة من كتاب "الثورة و الثورة المضادة في ألمانيا".

هذه النصوص لم يكن لها أثر كبير بالرغم من حذفها، على مستوى التحليل النظري، و بالمقابل قام لينين بإضافتين:
أولهما، رسالة ماركس إلى ويدماير في سنة 1852، و قد وردت خلال إعادة نشر الكتاب سنة 1918 (انظر المجلد 25، ص 416)، و قد سبق للينين أن طرح سؤالا في دفتره الأزرق، حول هل سبق لماركس و انجلز أن تحدثا عن دكتاتورية البروليتاريا قبل 1871، و كان جواب لينين أنه لا يعتقد في ذلك.
في الدفتر الأزرق، كما في "الدولة و الثورة" (مجلد 25، من صفحة 444 إلى ص 517)، كما هو عند حديثه عن مراجع 1852 ليس هناك أي إشارة إلى دكتاتورية البروليتاريا، بل هناك حديث عن كسر الدولة، كما جاء في كتاب "18 برومير".
2- الإضافة الثانية، هي عبارة عن مقتطف طويل من "أنتي دوهرينغ"، حيث يقوم انجلز، من خلال نص لماركس بالتأكيد على دور العنف الثوري، باعتباره قابلة المجتمعات القديمة لحظة المخاض. هكذا يجمع لينين هذه الخلاصة من خلاصات "بؤس الفلسفة" و "بيان الحزب الشيوعي"، حيث يعلن البيان بافتخار أن الثورة العنيفة لا مناص منها، و هناك كذلك تذكير بكتاب "نقد برنامج غوتا"، هكذا أصبح العنف الثوري عنصرا حاسما في مفهوم الدولة.
ويرى لينين كذلك أنه لا يجب الاكتفاء، بالنسبة للماركسيين بالقول أن الدولة "تنطفئ"، بينما يقول الفوضويون بضرورة القضاء عليها، إن القول بذلك، يعني السكوت عن المرحلتين في السيرورة :
1) المرحلة الأولى : و هي القضاء (سوبريسيون) على الدولة البورجوازية، و هو عمل تقوم به الثورة البروليتارية .
2) المرحلة الثانية : مرحلة التصفية (إكستانكسيون) وهي ذات صلة بما تبقى من الدولة البروليتارية بعد الثورة الاشتراكية. إن هذا التمييز علق عليه لينين قائلا : "إن الدولة البورجوزية حسب انجلز لا تنطفئ، بل يتم القضاء عليها من طرف البروليتاريا خلال الثورة، إذ ما ينطفئ بعد الثورة هي الدولة البروليتارية، و بطريقة أخرى، يمكن القول :

==> إن مفهوم دكتاتورية البروليتاريا، يسمح بالتفكير معا في التحطيم و الاختفاء للدولة. إن العمليتين تسيران في مسار واحد، و هنا عجز كل من كاوتسكي و بليخانوف و بوخارين كذلك، عن ادراك ذلك، و هنا المساهمة الكبيرة للينين، و لذلك مثل كتابه " الدولة والثورة" مرحلة هامة في تطوير الفكر النظري الماركسي.

==> عند هذا الحد تنطرح اشكالية العنف:

العنف هو تلك:

"السلطة الخاصة للقمع، التي يمارسها ملايين العمال ضد كمشة من الأغنياء، هي دكتاتورية البروليتاريا.

غالبا ما يعارض البورجوازيون الاشتراكيون الديموقراطيون و التحريفيون، و مفكروهم هذه المسألة، أي العنف بالديموقراطية، لكن ما هي الديموقراطية؟ أهي ديموقراطية "الدولة الشعبية الحرة" كما في "برنامج غوتا" سنوات 70 من القرن 19، و التي لا تختلف عن الديموقراطية البورجوازية، حيث العبودية المأجورة هي قاسم الشعب، أو أن الأمر يتعلق بالدولة بشكل عام، أي الديموقراطية الأكثر اكتمالا، التي لا يمكن أن تنطفئ معها نصف الدولة، الدولة – الكومونة، الدولة لا دولة، الدولة بثمن بخس، أو دكتاتورية البروليتاريا، كمحاولة لإعادة دمج Reinfusion للدولة في المجتمع المدني كنهاية للدولة، و هذا الذي لا يقبل من الديموقراطية في الديموقراطية البورجوازية.

==> بناءا على هذا الاعتبار، فسلطة الطبقة العاملة و حلفائها ليس لها معنى إلا في تعميق الديموقراطية إلى أقصى حد، أي دكتاتورية ديموقراطية، بحيث أنها ليست دولة للجميع، إلا بشرط ألا تكون "دولة تماما".

== > الدولة و الثورة، و هما معا، لا يمكن الفصل بينهما. الثورة و القضاء على الدولة البورجوازية من أجل دولة البروليتاريا، أي الدولة لا دولة، نصف دولة، الدولة السائرة نحو الانمحاء، الدولة التي تقضي على نفسها بنفسها في حالة نجاح الثورة الاشتراكية و تصلب عودها بشكل نهائي، أو بالعودة إلى الثورة لتصحيح مسارها و تصليب عودها، لتستأنف

مسارها نحو الانمحاء، أي الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية الكاملة، و هنا استحضار التجارب التاريخية و إسهام الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى في الصين.

لقد مرت عشرات السنين على صدور كتاب "الدولة و الثورة"، و في تاريخه الحافل تم طبعه بأعداد كبيرة من النسخ، و بعشرات اللغات في أكثر من مئة بلد، و أعيد طبعه مرات عديدة، و لا زال مرجعا للدارسين و الباحثين في مجال مفهوم الدولة الماركسي ، و يستعمله الماركسيون اللينينيون الثوريون نبراسا لطريقهم الثوري، انطلاقا من أن لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية، و ما زال الكتاب يحظى بقوة راهنيته في زمن تضبب فيه الأفق الثوري، نتيجة للانتكاسات التي عرفتها الحركة الشيوعية العالمية، و نتيجة خيانات التحريفية و انتشار الخطوط العفوية و الفوضوية و كل أنواع الانحرافات البورجوازية الصغيرة .(يتبع بالجزء الثاني: ملخص كتاب "الدولة والثورة"، فلاديمير ايليتش أوليانوف – لينين.)

علي محمود

2019 . 7 . 18

ملخص كتاب "الدولة والثورة"

المؤلف: فلاديمير ايليتش أوليانوف – لينين.
ترجمة: دار التقدم، موسكو.

تقديم

عندما وضع لينين كتابه "الدولة والثورة"، **كانت** مسألة الدولة بالنسبة له، تكتسي أهمية خاصة سواء من **الناحية النظرية** أم من **الناحية العملية السياسية**. فمن جهة، فإن الحرب الامبريالية الأولى قد عجلت وعمقت لأقصى حد ممكن سير تحول الرأسمالية الاحتكارية إلى **رأسمالية الدولة الاحتكارية**. أما الظلم الفظيع الذي تقاسيه جماهير الشغيلة من قبل الدولة التي تلتحم أوثق فأوثق باتحادات الرأسماليين ذات الحول والطول، فغدا أفظع فأفظع. والبلدان المتقدمة - ونقصد مؤخراتها- تتحول بالنسبة للعمال إلى سجون عسكرية للأشغال الشاقة. ومن جهة أخرى فإن تنامي عناصر الانتهازية التي تراكمت في غضون عشرات السنين من التطور السلمي نسبيا، فقد أنشأت تيار الاشتراكية-الشوفينية السائدة في الأحزاب الاشتراكية الرسمية في العالم بأسره. وهذا التيار (بليخانوف، بوتروسوف، بريشكوفسكايا، روبانوفيتش، ثم المقنعون بقناع شفاف، السادة تسيريتيلي، تشيرنوف وشركاهما في روسيا؛ شيدمان، ليغين، دافيد وأضرابهم في ألمانيا؛ رينودل، غيد، فاندرفيلده في فرنسا وبلجيكا؛ هايندمان والفابيون في إنكلترا، وهلم جراً وهلم جراً)، وهو **الاشتراكية قولاً والشوفينية فعلاً**، يتميز بكون

زعماء الاشتراكية يتكيفون بذلة وحقارة، ليس فقط وفق مصالح برجوازيتهم الوطنية، بل، وعلى وجه الدقة، وفق مصالح دولتهم.

إن لينين قد اعتمد في مضمون هذا الكتاب على تعاليم ماركس وإنجلز بشأن الدولة، متناولا بإسهاب خاص ما نسي أو تعرض للتشويه الانتهازي من نواحي هذه التعاليم. وبعد ذلك درس بصورة خاصة الممثل الرئيسي لهذه التشويهات، كارل كاوتسكي[1]، أشهر زعماء الأممية الثانية (سنوات 1889-1914) التي أفلست إفلاسا مشينا للغاية أثناء الحرب الامبريالية الأولى.

المجتمع الطبقي والدولة

1-الدولة هي نتاج استعصاء التناقضات الطبقية

يقول إنجلز بهذا الصدد:

«الدولة ليست بحال قوة مفروضة على المجتمع من خارجه. والدولة ليست كذلك واقع الفكرة الأخلاقية، صورة وواقع العقل كما يدعي هيجل[2]. الدولة هي نتاج المجتمع عند درجة معينة من تطوره؛ الدولة هي إفصاح عن واقع أن هذا المجتمع قد تورط في تناقض مع ذاته لا يمكنه حله، وأنه قد انقسم إلى متضادات مستعصية هو عاجز عن

1 . كارل كاوتسكي: (1854-1938) اشتراكي دمقراطي ألماني كان من قادة الحزب الاشتراكي الدمقراطي الألماني ومن أبرز المنظرين الاشتراكيين الدمقراطيين داخل الحزب وفي الأممية الثانية خاصة بعد وفاة انجلز، وبسبب عجزه عن فهم مجموعة من الأطروحات الماركسية، لم يستطع التصدي مثله في ذلك مثل بليخانوف، للأطروحات التحريفية التي روج لها برنشتاين وتحول هو نفسه الى التحريفية، فخان المبادئ الأممية للماركسية الثورية وأصبح عدوا للبلشفية وللثورة الاشتراكية السوفياتية.

2 . هيجل:(1770-1831) أكبر فيلسوف مثالي في الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، استاذ جامعي موسوعي كتب في العديد من المجالات المعرفية كالميتافيزيقا وعلم التاريخ والسياسة وعلم الجمال والفن والمنطق، وتبقى مساهمته في الديالكتيك والمنطق من أبرز الاسهامات في كل العصور. وقد تتلمذ ماركس على هيجل فكان منتميا إلى تيار الهيجليين الشباب قبل أن يصبح ماديا وشيوعيا فقام بعملية قلب للديالكتيك المثالي الهيجيلي مؤسسا الفكر المادي الجدلي الذي جمع ووحد في كل واحد الديالكتيك والمنطق ونظرية المعرفة.

الخلاص منها. ولكيلا تقوم هذه المتضادات، هذه الطبقات ذات المصالح الاقتصادية المتنافرة، بالتهام بعضها بعضاً، وكذلك المجتمعات في نضال عقيم، لهذا اقتضى الأمر قوة تقف في الظاهر فوق المجتمع، قوة تلطف الاصطدام وتبقيه ضمن حدود النظام. إن هذه القوة المنبثقة عن المجتمع والتي تضع نفسها، مع ذلك، فوقه وتنفصل عنه أكثر هي الدولة (ص 177-178 من الطبعة الألمانية السادسة لأصل العائلة والملكية الخاصة والدولة).

يستنتج لينين من ذلك، أن وجود الدولة كنتاج ومظهر لاستعصاء التناقضات الطبقية، **يبرهن** أن هذه التناقضات الطبقية **لا يمكن التوفيق بينها.**

فمن جهة، هذا ما يؤكده ماركس، بحيث يعني **لا يمكن للدولة** أن تنشأ وأن تبقى **إذا كان التوفيق** بين الطبقات أمرا ممكنا، ومن جهة أخرى هذا ما ينفيه البرجوازيون، وبالضبط، البرجوازيون الصغار، من كتاب ومفكرين، الذين يقولون إن الدولة **توفق** بالضبط بين الطبقات. ومن هذه النقطة بالتحديد يبدأ تشويه الماركسية.

2-فصائل خاصة من رجال مسلحين، وسجون، إلخ

يستطرد انجلز قائلا: "

...تتميز الدولة أولا، بتقسيم رعاياها بموجب تقسيم الأراضي، هذا التقسيم الذي تطلب نضالا طويلا (وليس طبيعيا) ضد التنظيم الجنسي القديم القائم على أساس القبائل أو العشائر. وثانيا تتميز الدولة بتأسيس السلطة العامة التي لم تعد تنسجم مباشرة مع السكان المنظمين أنفسهم بأنفسهم في قوة مسلحة. وهذه السلطة العامة المميزة ضرورية لأن منظمة السكان المسلحة العاملة من تلقاء نفسها غدت أمرا مستحيلا منذ انقسام المجتمع إلى طبقات... وتوجد هذه السلطة العامة في كل دولة. وهي لا تتألف فقط من رجال مسلحين، بل كذلك من ملاحق مادية، من السجون ومختلف مؤسسات القسر التي كانت معدومة في المجتمع المنظم على أساس القبائل (العشائر)...".

ما يؤكده لينين بالفعل من خلال شرح ما قاله إنجلز: أن مفهوم القوة التي تسمى الدولة، **هي القوة التي نشأت في المجتمع،** ولكنها تضع نفسها فوقه وتنفصل عنه أكثر فأكثر. والتي تتألف بصورة رئيسية من فصائل خاصة من رجال مسلحين تحت تصرفهم السجون والخ...

ولكنه يضيف، لماذا غدا من الضروري وجود فصائل خاصة من رجال مسلحين، الشرطة والجيش النظامي، والتي تضع نفسها فوق المجتمع وتنفصل عنه والتي هي في نفس الوقت الأداة الرئيسية لقوة سلطة الدولة؟ يميل التافهون الضيقو الأفق في أوروبا الغربية وروسيا إلى الجواب بجملة من عبارات مقتبسة من سبنسر أو ميخايلوفسكي، مستشهدين بتعقد الحياة الاجتماعية، وبتمايز الوظائف وهلم جرا. إن هذا الاستشهاد يبدو عمليا وهو **ينوم** بصورة ممتازة ذا الذهنية البرجوازية الصغيرة، **بطمسه** الأمر الرئيسي والأساسي، أي **انقسام** المجتمع إلى **طبقات متعادية** عداء مستعصياً.

3-الدولة أداة لاستغلال الطبقة المظلومة

لقد كتب انجلز:

"إن الموظفين إذ يتمتعون بالسلطة العامة وبحق جباية الضرائب يصبحون، باعتبارهم هيئات المجتمع، فوق المجتمع. فالاحترام الطوعي الاختياري الذي كان يمحض لهيئات مجتمع القبائل (العشائر) لم يعد يكفيهم حتى فيما لو كان باستطاعتهم اكتسابه...كما توضع قوانين خاصة بشأن قداسة وحصانة الموظفين".

ويشرح ذلك لينين كما يلي:

"... بما أن الدولة قد نشأت من الحاجة إلى لجم تضاد الطبقات، وبما أنها نشأت في الوقت نفسه ضمن الاصطدامات بين هذه الطبقات، فهي كقاعدة عامة دولة الطبقة الأقوى السائدة اقتصاديا، والتي تصبح عن طريق الدولة الطبقة السائدة سياسيا أيضا ، وتكتسب على هذه الصورة وسائل جديدة لقمع الطبقة المظلومة واستمرارها... فالدولة

القديمة والدولة الإقطاعية لم تكونا وحدهما هيئتين لاستثمار العبيد والأقنان، بل كذلك الدولة التمثيلية الحديثة هي أداة لاستثمار العمل المأجور من قبل رأس المال".

يستطرد إنجلز:

"في الجمهورية الديمقراطية تمارس الثروة سلطتها بصورة غير مباشرة، ولكن بالشكل الأضمن: أولاً، عن طريق الرشوة المباشرة للموظفين (أمريكا) وثانيا، عن طريق التحالف بين الحكومة والبورصة (فرنسا وأمريكا)".

ويوضح لينين:

"إن الجمهورية الديمقراطية هي أحسن غلاف سياسي ممكن للرأسمالية، ولذا فرأس المال، إذ يستولي على هذا الغلاف الأفضل فإنه يقيم سلطته على أساس مكين، على أساس مضمون لحد لا يمكن معه لأي تبديل في الأشخاص ولا في المؤسسات ولا في الأحزاب في إطار الجمهورية البورجوازية الديمقراطية، أن يزعزع هذه السلطة".

4-الثورة العنيفة واضمحلال الدولة

يقول إنجلز:

"إن أول عمل تبرز فيه الدولة حقا (بعد أن تأخذ البروليتاريا سلطة الدولة) بوصفها ممثل المجتمع بأكمله –وليس دولة طبقة التي وحدها فقط تمثل المجتمع بأكمله - هوتملك وسائل الانتاج باسم المجتمع، وهو في الوقت نفسه آخر عمل تقوم به بوصفها دولة، وعندئذ يصبح تدخل الدولة في العلاقات الإجتماعية أمرا لا لزوم له في ميدان بعد آخر ويخبو من نفسه. وبدلا من حكم الناس، ينشأ توجيه الأمور وإدارة عمليات الإنتاج. إن الدولة لا تلغى إنها تضمحل". (ضد دوهر ينغ، السيد أوجين دوهرينغ يقلب العلم، ص 301-303، الطبعة الألمانية الثانية).

ويستنتج لينين:

1)القضاء على، **وتدمير وإلغاء** الدولة البورجوازية هي مهام الثورة البروليتارية.
2)أما **اضمحلال الدولة** فيخص بقايا الدولة البروليتارية بعد انتصار وتثبت الثورة الاشتراكية.
3) **ديكتاتورية البروليتاريا**:
إن القوة الخاصة لقمع البروليتاريا من قبل البورجوازية، لقمع ملايين من الشغيلة من قبل حفنات من الأغنياء، لا بد أن يستعاض عنها بقوة خاصة لقمع البرجوازية من قبل البروليتاريا.
وهذا يعني أن الدولة البرجوازية لا يستطيع القضاء عليها غير الثورة العنيفة. والدولة البروليتارية، أي الديمقراطية الأتم، يمكنها أن تضمحل وحسب. وعلى هذا الأساس ينبغي كذلك تقييم مطلب من يسمون بالفوضويين القائل بإلغاء الدولة بين عشية وضحاها.
خبرة سنوات 1848-1851وخبرة كومونة باريس سنة 1871
لماذا الاهتمام بمؤلفي "بؤس الفلسفة" و"البيان الشيوعي"؟
والجواب: لأنهما باكورتا الماركسية الناضجة، ويعودان بالضبط لعشية ثورة سنة 1848.
يقول ماركس في بؤس الفلسفة:
"... في مجرى التطور، ستحل الطبقة العاملة محل المجتمع البرجوازي القديم، رابطة لا مكان فيها للطبقات وتضادها؛ ولن تكون ثمة أي سلطة سياسية بمعنى الكلمة الخاص، لأن السلطة السياسية بالذات هي الافصاح الرسمي عن تضاد الطبقات في قلب المجتمع البرجوازي" (ص 182 من الطبعة الألمانية لسنة 1885).
كما يضيف ماركس في البيان الشيوعي:

+... رأينا فيما تقدم أن الخطوة الأولى في الثورة العالمية هي تحول (حرفيا: ترقي) البروليتاريا إلى طبقة سائدة، الظفر بالديموقراطية.

+.... تستفيد البروليتاريا من سيادتها السياسية لكي تنتزع بالتدريج من البرجوازية كامل رأس المال **وتمركز جميع أدوات الإنتاج في يد الدولة، أي في يد البروليتاريا المنظمة بوصفها طبقة سائدة** ولكي ما تزيد بأسرع ما يمكن القوى المنتجة (ص 31-37 من الطبعة الألمانية السابقة لسنة 1906).

يرى لينين هنا، صيغة لفكرة من أروع وأهم الأفكار الماركسية في مسألة الدولة، وهي **زوال الدولة** بعد القضاء على الطبقات، ثم فكرة **ديكتاتورية البروليتاريا** (كما غدا ماركس وانجلس يقولان بعد كومونة باريس)، ثم تعريفا للدولة في منتهى الأهمية أيضا ألا وهو أن **الدولة، أي البروليتاريا المنظمة بوصفها طبقة سائدة.**

في مسألة الدولة التي نحن بصددها لخص ماركس خبرة ثورة سنوات 1848-1851 في كتابه الثامن عشر من برومير لويس بونابرت بالعبارات التالية:

"... ولكن الثورة عميقة. إنها ما تزال في رحلة عبر المطهر. إنها تقوم بمهمتها بصورة منهجية. فحتى الثاني من ديسمبر سنة 1851 (يوم قيام لويس بونابرت بالانقلاب) أتمت نصف عملها التحضيري، وهي تتم الآن النصف الآخر. في البدء تسير بالسلطة البرلمانية إلى حد الكمال ليصبح بإمكانها اسقاطها. والآن، وقد بلغت ذلك، تسير بالسلطة التنفيذية إلى حد الكمال، تصل بها إلى تعبيرها الصرف، تجعلها في عزلة، تعرضها بنفسها باعتبارها الموضوع الوحيد لكيما تركز ضدها جميع قوى التدمير. وعندما تتم الثورة هذا النصف الثاني من عملها التحضيري، عندئذ تنهض أوروبا على قدميها وتهتف فرحة: ما أحسن ما تحفر أيها الخلد الهرم!

يستخلص لينين استنتاجا في منتهى الدقة والوضوح وبصورة حسية عملية تماما: **جميع الثورات السابقة اتقنت آلة الدولة في حين ينبغي تحطيمها وتكسيرها.**

بصفة عامة يمكن طرح المسألة كما يلي:

إن البروليتاريا لا تستطيع إسقاط البرجوازية إذا لم **تستولي** (يعني تدمير والقضاء على الدولة القديمة وليس خضوع الأقلية بشكل سلمي للأكثرية) في البدء على السلطة السياسية، إذا لم تحصل على السيادة السياسية، إذا لم تحول الدولة إلى بروليتاريا منظمة بوصفها طبقة سائدة، وأن هذه الدولة البروليتارية تبدأ بالاضمحلال فور انتصارها، لأن الدولة لا لزوم لها ولا يمكن أن توجد في مجتمع خال من التناقضات الطبقية.

ويضيف لينين: إن الديموقراطيين صغار البورجوازيين، أدعياء الاشتراكية هؤلاء، الذين **استعاضوا** عن النضال الطبقي بأحلام عن **التوفيق** بين الطبقات، تصوروا كذلك التحويل الاشتراكي بصورة خيالية، لا بصورة إسقاط سيادة الطبقة المستغلة، بل بصورة خضوع الأقلية بشكل سلمي للأكثرية المدركة لواجباتها. وهذه **الطوباوية البرجوازية** الصغيرة المرتبطة ارتباطا **لا تنفصم** عراه بالاعتراف بوجود **دولة قائمة فوق الطبقات** ،قد أفضت عمليا إلى خيانة مصالح الطبقات الكادحة، كما بين ذلك مثلا تاريخ ثورتي 1848 و 1871 الفرنسيتين، وكما بينت خبرة الاشتراك الاشتراكي بالوزارات البرجوازية في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من البلدان في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

إن التاريخ العالمي يدفع الآن دون شك، في نطاق أوسع بما لا يقاس من سنة 1852، إلى تركيز جميع قوى الثورة البروليتارية على تدمير آلة الدولة. أما بم تستعيض عنها البروليتاريا فقد أعطت كومونة باريس مادة حافلة بالعبر في هذا الخصوص.

بم تتلخص إذن البطولة في محاولة الكومونيين؟

يقول لينين: لقد رأى ماركس في هذه الحركة الثورية الجماهيرية، وإن كانت لم تبلغ الهدف، خبرة تاريخية ذات أهمية كبرى، خطوة معينة إلى الأمام تخطوها الثورة البروليتارية العالمية، خطوة عملية أهم من مئات البرامج والمحاكمات، إلى درجة أن **التعديل** الوحيد الذي اعتبر ماركس من الضروري إدخاله على البيان الشيوعي قد استوحاه من خبرة الكومونيين الباريسيين الثورية. حيث يقول ماركس وإنجلز بتاريخ 24 يونيو سنة 1872 إن برنامج البيان الشيوعي قد شاخ اليوم في بعض أماكنه. هذا التعديل الجوهري الذي تعرض للتشويه من طرف الانتهازيين ولخصوه في فكرة التطور البطيء خلافا للاستيلاء على السلطة وهلم جرا. والحقيقة هي العكس تماما. تتلخص فكرة ماركس في أن واجب الطبقة العاملة هو تحطيم آلة الدولة الجاهزة وكسرها، لا الاكتفاء بمجرد الاستيلاء عليها. وهذا أيضا ما يؤكده الدرس السابق لماركس أثناء تحليله لخبرة ثورة 1848-1851، وما يؤكد الانسجام المتواصل في منهجية التحليل الماركسي.

لقد كتب ماركس إلى كوغلمان في 12أبريل 1871أثناء الكومونة ما يلي: "... إذا ما ألقيت نظرة إلى الفصل الأخير من كتابي 18برومير رأيت أني أعلنت **أن المحاولة التالية للثورة الفرنسية يجب أن تكون لا نقل الآلة البيروقراطية العسكرية من يد إلى أخرى كما كان يحدث حتى الآن، بل تحطيمها**. وهذا هو الشرط الأولي لكل **ثورة شعبية** حقا في القارة. وفي هذا بالذات تتلخص محاولة رفاقنا الباريسيين الأبطال".

يستنتج لينين من ذلك ما يلي:

واجب الثورة البروليتارية حيال الدولة هو تحطيم آلة الدولة البيروقراطية العسكرية في كل القارة كشرط أولي لكل ثورة شعبية. إن مفهوم **الثورة الشعبية** يبدو مستغربا لدى ماركس، الأمر الذي حاول الانتهازيون الركوب عليه وتشويهه إذا ما اعتبروا فقط، وذلك انطلاقا من نظرتهم المثالية الأحادية الجانب، معارضة الثورة البرجوازية بالثورة البروليتارية. إن ماركس في تحليله الدقيق الذي يأخذ بعين الاعتبار الظروف الاقتصادية المادية للإنتاج يؤكد أنه لم تكن تستطيع الثورة أن تكون

ثورة شعبية، تجذب للحركة الأكثرية حقا، إلا إذا شملت **البروليتاريا والفلاحين**، لأن هاتان الطبقتان كانتا تؤلفان الشعب في ذلك الحين. إنه **التحالف الحر** بين البروليتاريا وفقراء الفلاحين، أخذا بعين الاعتبار **خصائص البرجوازية الصغيرة** التي كثيرا ما تكلم عنها وأكثر عنها الكلام.

وقد قرر، من الجهة الأخرى، أن تحطيم آلة الدولة تفرضه مصالح العمال ومصالح الفلاحين على السواء، وأنه يوحدهم ويضع أمامهم واجبا مشتركا هو القضاء على الطفيلي والاستعاضة عنه بشيء ما جديد، بأي شيء على وجه التحقيق؟

فبم إذن سيستعاض عن آلة الدولة المحطمة؟

بصيغة أخرى ما هي الأشكال الملموسة التي سيتخذها تنظيم البروليتاريا بوصفها طبقة سائدة وبأي صورة سيقترن هذا التنظيم مع الظفر بالديمقراطية الأتم والأكمل؟

في كتاب «الحرب الأهلية في فرنسا» يحلل ماركس أدق التحليل خبرة الكومونة على ضآلة هذه الخبرة. فلنورد أهم الفقرات من هذا المؤلف: في القرن التاسع عشر، تطورت سلطة **الدولة المتمركزة** مع أجهزتها المنتشرة في كل مكان: **الجيش النظامي والشرطة والبيروقراطية والاكليروس والفئة القضائية**، هذه السلطة المتحدرة من القرون الوسطى. ومع اشتداد التناحر الطبقي بين رأس المال والعمل، كانت سلطة الدولة تتخذ أكثر فأكثر طابع سلطة عامة لظلم العمل، طابع أداة للسيطرة الطبقية. وبعد كل ثورة تشكل خطوة معينة إلى الأمام خطاها النضال الطبقي يتجلى طابع الاضطهاد المحض لسلطة الدولة على نحو أوضح فأوضح. وبعد ثورة سنتي 1848-1849، غدت سلطة الدولة آلة قومية لحرب الرأسمال ضد العمل. وجاءت الإمبراطورية الثانية توطد ذلك.

+ كانت **الكومونة النقيض المباشر للإمبراطورية**. فقد كانت شكلا معينا لجمهورية ينبغي لها أن تزيل لا الشكل الملكي للحكم الطبقي فحسب، بل أيضا الحكم الطبقي ذاته...

بـمَ على وجـه التـدقيق، ظهـر هـذا الشـكل المعينّ للجمهوريـة البروليتاريـة، الاشـتراكية؟ وكيـف كـانت الدولـة الـتي شرعت بتأسيسها؟

+... كان أول مرسوم أصدرته الكومونة يقضي **بإلغاء الجيش النظامي والاستعاضة عنه بالشعب المسلح...**

+... لقد **تشكلت الكومونة من نواب البلدية الذين تم انتخابهم عن طريق الاقتراع العام في مختلف دوائر باريس.** كانوا مسؤولين **وكان يمكن سحبهم في أي وقت كان. وكانت أكثريتهم، بطبيعة الحال، من العمال أو من ممثلي الطبقة العاملة المعترف بهم...**

+... **والشرطة** التي كانت حتى ذلك الحينّ أداة في يد الحكومة المركزية **جردت في الحال من جميع وظائفها السياسية وحولت إلى هيئة للكومونة مسؤولة يمكن تبديلها في أي وقت كان... وهكذا كان الحال أيضا بالنسبة لموظفي سائر فروع الإدارة...ومن فوق إلى أسفل، ابتداء من أعضاء الكومونة كان يتعين أداء الخدمة العامة لقاء أجرة تساوي أجرة عامل. وقد أزيلت جميع الامتيازات وعلاوات التمثيل التي كان يتقاضاها كبار موظفي الدولة مع زوال هؤلاء الموظفين...** وبعد أن أزالت الكومونة الجيش النظامي والشرطة، وهما أداتا الحكم المادي في يد الحكومة القديمة، **أخذت في الحال تكسر أداة الاستعباد الروحي ، قوة الكهنة... وفقد الموظفون القضائيون استقلالهم الصوري... وأصبح من المترتب عليهم أن يُنتخبوا علنا وأن يكونوا مسؤولين وقابلين للسحب...**

وهكذا يستنتج لينين أن الكومونة لم تستعيض عن آلة الدولة المحطمة «إلاّ» بديموقراطية أتم: القضاء على الجيش النظامي، مبدأ انتخاب وسحب جميع الموظفين. ولكن هذه الـ «**إلاّ**» تعني في حقيقة الأمر **تبديلا** هائلا لنوع من مؤسسات بنوع آخر يختلف اختلافا مبدئيا. نحن هنا في الحقيقة أمام حالة من حالات **تحول الكمية إلى كيفية:** فالديموقراطية

المطبقة بأتم وأوفى شكل يمكن تصوره عموما **تتحول من ديموقراطية برجوازية إلى ديموقراطية بروليتارية**، من دولة = قوة خاصة لقمع طبقة معينة إلى شيء ليس الدولة بمفهومها.

إن قمع البرجوازية ومقاومتها كان ما يزال أمرا ضروريا وكانت هذه الضرورة تفرض ذاتها على الكومونة بوجه خاص. **فأحد أسباب انهزامها يتلخص في كونها لم تقم بذلك بالحزم المطلوب.**

وفيما يخص إلغاء البرلمانية:

لقد كتب ماركس: وكان يراد بالكومونة أن تكون **لا هيئة برلمانية، بل هيئة عاملة** تتمتع بالسلطتين التشريعية والتنفيذية في الوقت عينه...

يقول لينين كان يراد تحويل المؤسسات من **ندوات للثرثرة** إلى مؤسسات عاملة. لقد استعاضت الكومونة عن **برلمانية المجتمع البرجوازي المرتشية والمتعفنة بمؤسسات لا تنحط فيها حرية الرأي والبحث إلى خداع، لأنه يتوجب على البرلمانيين أن يعملوا هم أنفسهم، أن ينفذوا قوانينهم بأنفسهم، أن يتحققوا بأنفسهم من نتائجها العملية، أن يقدموا الحساب مباشرة لناخبيهم.** تبقى المؤسسات التمثيلية، ولكن البرلمانية باعتبارها نظاما خاصا، باعتبارها فصلا للعمل التشريعي عن التنفيذي، باعتبارها وضعا ممتازا للنواب، تنعدم هنا. **لا يمكننا أن نتصور الديموقراطية، وحتى الديموقراطية البروليتارية، بدون مؤسسات تمثيلية؛** ولكن يمكننا ومن واجبنا أن نتصورها بدون البرلمانية إذا لم يكن انتقاد المجتمع البرجوازي في نظرنا مجرد عبارات فارغة، وإذا كان طموحنا إلى إسقاط سيطرة البرجوازية صادقا وجديا، لا عبارة انتخابية لتصيد أصوات العمال كما هو حال المناشفة والاشتراكيين-الثوريين، كما هو حال شيدمان وليغين وسامبا وفانرفيلده، ومن لف لفهم.

وفيما يتعلق بتنظيم وحدة الأمة:

يقول ماركس: ...وقد ورد بوضوح تام في موجز التنظيم القومي الذي لم يتوفر للكومونة الوقت لوضعه بتفصيل أكبر، أن الكومونة يجب أن ... تصير الشكل السياسي حتى لأصغر قرية ...
والكومونة هي التي كان عليها أن تنتخب منتدبي الأمة في باريس. ...والوظائف القليلة، ولكنها الهامة جدا، **التي كانت ستظل في يد الحكومة المركزية** لم تكن لتلغى، -ومثل هذا الزعم كان تزويرا عن عمد-بل كان يجب نقلها إلى موظفي الكومونة، أي إلى موظفين ذوي مسؤولية محددة تحديدا دقيقا...
... **ووحدة الأمة لم تكن لتفصم، بل بالعكس كانت ستنظم عن طرق البناء الكوموني**. وكان لوحدة الأمة أن تصبح حقيقة واقعة بالقضاء على سلطة الدولة التي كانت تدعي بأنها تجسيد لتلك الوحدة، ولكنها كانت ترغب في أن تكون مستقلة عن الأمة، مستعلية عليها. أمّا في الواقع، فلم تكن سلطة الدولة هذه إلاّ بمثابة الزائدة الطفيلية على جسم الأمة ... وكانت المهمة هي بتر أجهزة الاضطهاد البحتة التابعة للسلطة الحكومية القديمة، وانتزاع الوظائف المعتادة من سلطة تطمع بأن تكون فوق المجتمع وتسليمها إلى خدم المجتمع المسؤولين.

يستنتج لينين: يلتقي ماركس وبرودون في كون الاثنين يناديان بتحطيم آلة الدولة الحديثة. وهذا الشبه بين الماركسية والفوضوية (برودون[3] وباكونين[4] على حد سواء) لا يريد أن يراه الانتهازيون ولا الكاوتسكيون لأنهم حادوا عن الماركسية في هذه النقطة.

ويفترق ماركس عن برودون وكذلك عن باكونين في مسألة الاتحادية على وجه التحقيق (فضلا عن ديكتاتورية البروليتاريا). الاتحادية تنبثق مبدئيا عن النظرات البرجوازية الصغيرة للفوضوية. **إن ماركس من القائلين بالمركزية**. وفيما أوردناه من محاكماته لا يوجد أي تراجع عن المركزية. فقط الناس الذين حشيت رؤوسهم حشوا بالإيمان الخرافي الأعمى البرجوازي الصغير بالدولة يستطيعون أن يروا في القضاء على آلة الدولة البرجوازية قضاء على المركزية!

وأخيرا لقد أشار ماركس عمدا، وكأنه توقع إمكانية تشويه نظراته، إلى أن اتهام الكومونة بالرغبة في القضاء على وحدة الأمة وفي إلغاء السلطة المركزية هو من التزوير المتعمد. وقد تقصد ماركس استعمال تعبير تنظيم وحدة الأمة لكي ما يعارض المركزية البرجوازية والعسكرية البيروقراطية بالمركزية البروليتارية الواعية والديموقراطية.

فكيف إذن سيتم القضاء على الطفيلي، على الدولة؟

---

3 ـ برودون:(1809-1865) اشتراكي فرنسي اهتم بالفلسفة والاقتصاد وعلم الاجتماع، يعتبر من رواد الاتجاه الفوضوي، له مجموعة من الكتب أهمها كتاب " ما هي الملكية؟" ومن أقواله: " إن الملكية هي السرقة" و" الفوضوية هي أعلى درجة للحرية والنظام الذي تستطيع ان تصل إليه الانسانية". ويعتبر منظر الاشتراكية التعاونية البورجوازية الصغيرة.

4 ـ باكونين:(1814-1876) ثوري روسي من معاصري ماركس، فيلسوف ومنظر الفوضوية داخل الحركة العمالية في القرن 19، ويعتبر من أهم منظريها وخاض صراعات فكرية وسياسية ضد ماركس وانجلز داخل الأممية الأولى وخارجها، انتهت بانتصار الماركسية. وكتب باكونين كثيرا حول مسألة الدولة معارضا وجهة نظر ماركس وانجلز، وداعيا الى مفاهيم فوضوية حول الثورة والدولة.

بالنسبة للينين ، لقد استخلص ماركس من كامل تاريخ الاشتراكية والنضال السياسي أنه لا بد للدولة أن تزول وأن الشكل الانتقالي لزوالها (الانتقال من الدولة إلى اللادولة) سيكون البروليتاريا المنظمة في طبقة سائدة. ولكن ماركس لم يأخذ على عاتقه اكتشاف الأشكال لهذا المستقبل. لقد اقتصر على تتبع التاريخ الفرنسي بصورة دقيقة، على تحليله وعلى استخلاص الاستنتاج الذي قادت إليه سنة 1851: تقترب الأمور من تحطيم آلة الدولة البرجوازية.

مقابل ذلك انصرف الطوباويون إلى اكتشاف الأشكال السياسية التي ينبغي أن تحدث في ظلها إعادة تنظيم المجتمع على أساس الاشتراكية. **وقد أشاح الفوضويون بوجوههم عن مسألة الأشكال السياسية بوجه عام. وقبل الانتهازيون في الاشتراكية-الديموقراطية البرلمانية كحد لا يمكن تخطيه،** وعفروا جباههم في الركوع والسجود أمام هذا المعبود، وأعلنوا من الفوضوية كل نزعة إلى تحطيم هذه الأشكال.

إن الكومونة هي الشكل الذي اكتشفته أخيرا الثورة البروليتارية والذي يمكن في ظله أن يتحقق التحرر الاقتصادي للعمل.

إن الكومونة هي أول محاولة تقوم بها الثورة البروليتارية لتحطيم آلة الدولة البرجوازية والشكل السياسي الذي أُكتشف أخيرا والذي يمكن ويجب أن يستعاض به عن المحطَّم.

بصفة عامة، ونتيجة لتحليل ما سبق، يستنتج لينين ما يلي:

إن نظرية ماركس بأكملها تتلخص في كونه **يطبق** على الرأسمالية الحديثة **نظرية التطور** بشكلها الأتم والمنسجم والغني المضمون. وطبيعي إذن أن يكون ماركس قد واجه مسألة تطبيق هذه النظرية كذلك على انهيار الرأسمالية **المقبل** وعلى التطور **المقبل** للشيوعية **المقبلة**. فماركس يطرح مسألة الشيوعية كما يطرح عالم الطبيعيات مسألة تطور نوع جديد، لنقل مثلا، تطور من الأنواع البيولوجية بعد أن عرف مصدره واتضح الاتجاه الذي يسلكه تطوره.

إن النقطة التي أثبتتها بكل دقة نظرية التطور كلها والعلم كله بوجه عام والتي نسيها الطوباويون وينساها الانتهازيون الحاليون الذين يخشون الثورة الاشتراكية، **هي واقع أنه لابد تاريخيا من طور خاص أو مرحلة خاصة للانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية**.

ويستدل ماركس في ذلك حين يقول: بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي تقع مرحلة **تحول** المجتمع الرأسمالي **تحولا ثوريا** إلى المجتمع الشيوعي. وتناسبها **مرحلة سياسية**، لا يمكن أن تكون فيها الدولة سوى **الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا**. مستندا في ذلك إلى أن واقع مصالح البروليتاريا والبورجوازية المتضادة لا يمكن التوفيق بينهما.

وهذا ما يؤكده إنجلز بدوره:

"إن البروليتاريا بحاجة إلى الدولة لا من أجل الحرية، بل من أجل قمع خصومها، وعندما يصبح بالإمكان الحديث عن الحرية، عندئذ تزول الدولة".

وتجدر الإشارة هنا أن المقصود بالمجتمع الشيوعي ، لا كما تطور على أسسه الخاصة، بل على العكس، كما يخرج لتوه من رحم المجتمع الرأسمالي بالذات؛ أي مجتمع لايزال، من جميع النواحي، الاقتصادية والأخلاقية والفكرية يحمل سمات المجتمع القديم الذي خرج من أحشائه، لذا فماركس يسمي هذا الطور من المجتمع الشيوعي الطور الأدنى أو الأول ، وعلى ذلك فإن المرحلة الأولى من الشيوعية لا يمكنها أن تعطي العدالة والمساواة لأنه تبقى فروق في الثروة ولأن مجرد انتقال وسائل الإنتاج إلى ملكية عامة للمجتمع كله (الاشتراكية بمعنى الكلمة المعتاد) لا يزيل نواقص التوزيع واللا مساواة في الحق البورجوازي الذي يضل سائدا ما دامت المنتوجات توزع حسب العمل.

يؤكد ماركس أيضا بقوله إن هذا **نقص،** ولكن لا مفر منه في الطور الأول من الشيوعية (الاشتراكية)، لذلك تبقى الحاجة إلى دولة تصون الملكية العامة لوسائل الإنتاج وبذلك تصون تساوي العمل وتساوي توزيع المنتوجات. وهذا ما يؤكد استنتاجا

آخر وهو أن الدولة لا تضمحل بعد بصورة تامة، واضمحلالها بصورة تامة يقتضي الأمر الشيوعية الكاملة أو الطور الأعلى من المجتمع الشيوعي حيث تنعدم الطبقات، ويستحيل بالتالي قمع أية طبقة.

ويستطرد ماركس حيث يصف الطور الأعلى من المجتمع الشيوعي: في الطور الأعلى من المجتمع الشيوعي، بعد أن يزول اخضاع الأفراد المذل لتقسيم العمل ويزول معه التضاد بين العمل الفكري والعمل الجسدي، وحيث يصبح العمل لا وسيلة للعيش وحسب، بل الحاجة الأولى للحياة أيضا؛ وحين تتنامى القوة المنتجة مع تطور الأفراد في جميع النواحي، وحين تتدفق جميع ينابيع الثروة الجماعية بفيض وغزارة؛ حينذاك فقط، يصبح بالإمكان تجاوز الأفق الضيق للحق البورجوازي تجاوزا تاما، ويصبح بإمكان المجتمع أن يسجل على رايته: **من كل حسب كفاءاته لكل حسب حاجاتهّ**.

إذن لفهم الانتقال من المجتمع الرأسمالي إلى المجتمع الشيوعي، يجب فهم التقسيم الذي أعطاه وحدده ماركس للمجتمع الشيوعي. إن نظرة اعتبار المجتمع الشيوعي منذ بدايته كلا متكاملا، خالي من التناقضات، هي نظرة ليست ديالكتيكية مادية، أي ليست تخضع لقانون تطور الكم إلى الكيف، ما جعل الخلط وعدم التفرقة بينّ مفهومين أساسيين هما الطور الأدنّى (الاشتراكية) والطور الأعلى من المجتمع الشيوعي؛ وهذا هو السبب الرئيسي (الذي هو تحريف في النظرة المادية الديالكتيكية في فلسفة ماركس) ،الذي في نفس الوقت ، جعل الانتهازيين والفوضويين يستعيضون عن مفهوم **القضاء وتدمير** الدولة القديمة **بالتوفيق** بينّ الطبقات **والحفاظ** على الدولة، وعن مفهوم **ديكتاتورية البروليتاريا بالديمقراطية البرلمانية البورجوازية**، وأخيرا عن مفهوم **اضمحلال الدولة بتدميرها بين عشية وضحاها**. ومن هذا الخطأ النظري تمكن لينين من فضح بعض تشويهات الانتهازيين والفوضويين من قبيل كاوتسكي وبليخانوف. دون **إغفال أن الجوهري في تشويه وابتذال الماركسية قد نشأ عن التهرب من مسألة موقف الدولة من الثورة البروليتارية وموقف الثورة البروليتارية من الدولة**.

لقد حاول الفوضويون أن يعلنوا كومونة باريس ذاتها بأنها كومونتهم، إن أمكن القول، وبأنها تثبت تعاليمهم، ولكنهم لم يفهموا شيئا من دروس الكومونة، ولا من تحليل ماركس لهذه الدروس. لم تعط الفوضوية أي شيء يشبه الحقيقة ولو شبها تقريبا حول السؤالين السياسيين الملموسين:

أينبغي تحطيم آلة الدولة القديمة؟ وبأي شيء يمكن الاستعاضة عنها؟ لأن الانتهازية لا تحتاج لشيء كحاجتها إلى عدم طرح هذين السؤالين. مثلا إن كاوتسكي لم يفهم الفرق أبدا بين البرلمانية البورجوازية التي تجمع الديمقراطية (لا للشعب) والبيروقراطية (ضد الشعب) وبين الديموقراطية البروليتارية.

ويمكن تلخيص الفرق بين الماركسيين والانتهازيين والفوضويين فيما يلي:

1) **في كون الماركسيين**، إذ يستهدفون القضاء التام على الدولة، يعترفون بأن هذا الهدف غير ممكن التحقيق إلا بعد الثورة الاشتراكية والقضاء على الطبقات، وكنتيجة لإقامة الاشتراكية التي تؤدي إلى اضمحلال الدولة.**وفي كون الفوضويين** يريدون القضاء التام على الدولة بين عشية وضحاها، دون أن يفهموا الشروط التي تجعل هذا الأمر قابل التحقيق.

2) **في كون الماركسيين** يعترفون بأن من الضروري للبروليتاريا أن تحطم بصورة تامة، بعد استيلائها على السلطة السياسية، آلة الدولة القديمة، وأن تستعيض عنها بآلة جديدة تتألف من منظمة العمال المسلحين من طراز الكومونة، **وفي كون الفوضويين** يقولون بتحطيم آلة الدولة متصورين بغموض تام بما تستعيض البروليتاريا عنها وكيف تستفيد من السلطة الثورية؟ حتى أن الفوضويين ينكرون ديكتاتوريتها الثورية.

3) **في كون الماركسيين** يطالبون بإعداد البروليتاريا للثورة عن طريق الاستفادة من الدولة الراهنة، **أما الفوضويون** فينكرون ذلك.

إن ماركس وإنجلز قد علما البروليتاريا في غضون أربعين سنة، من سنة 1852 إلى سنة 1891، أن واجبها تحطيم آلة الدولة، أما كاو تسكي في سنة 1899، حيال خيانة الانتهازيين للماركسية خيانة تامة في هذه النقطة، فيطمس مسألة ما إذا كان من الضروري تحطيم هذه الآلة مستعيضا عنها بمسألة الأشكال الملموسة لهذا التحطيم ويولي دبره لائذا لحقيقة مبتذلة لا جدال فيها (ولا جدوى منها) وهي لا نستطيع أن نعرف سلفا الأشكال الملموسة.

حمو خالد

2018 - 12 - 14

قراءة في إشكالية الدولة في الماركسية ـ اللينينية

ـ عرض مختصر لآراء الماركسيين من خلال أطروحة:

" الدولة والثورة ومهمات البروليتاريا في الثورة "

ـ فلاديمير إيليتش لينين ـ

في السياق

مائة عام مرت حتى الآن بالتقويم البلشفي[1]، التقويم الذي شرع الماركسيون المصممون على- استكمال مهام الثورة البروليتارية، يعتمدونه في التأريخ لمراسلاتهم، يرمزون إليه بالحروف الثلاثة (بلش). مائة عام مرت حتى الآن على انتصار الثورة البلشفية "الانتصار الدائم والعابر للأزمان والتاريخ"، حيث اعتماد التقويم البلشفي العظيم مهمة ملحة للغاية، غايتها توحيد الزمن لاستكمال الثورة البلشفية الأممية، والتي تقف على مسافة نصف خطوة من إعلان الموت الأخير والنهائي "للروح العالقة منذ سنين بين الموت والحياة ": الروح الشريرة للرأسمالية الامبريالية.

وحيث لا فشل بعد هذا النصر العظيم كما تزعم الأبواق المرتدة، ولا تراجع ولا رجوع للقهقرى، كما تحاول جيوش البورجوازية الوضيعة التي بنيت من خيوط العناكب، من الورق المقوى من "مطارح عالية من الخيانة" وفي زمن الفوضى

1 . هناك من اقترح التقويم البلشفي مؤخرا، وعبر عن هذه الخطوة بمناسبة الذكرى الذهبية للثورة البلشفية، وحسب ذلك، يبتدئ التقويم من 1 (بلش) السنة التي انتصرت فيها الثورة في روسيا بقيادة فلاديمير لينين، وذلك في اتجاه توحيد الزمان الماركسي، انطلاقا من أن ثورة أكتوبر، قد فتحت لأول مرة في التاريخ عهدا جديدا لثورات العمال والكادحين والشعوب، من أجل تحررهم.

حقا : فوضى رفض الإقرار بالانتصار النهائي للثورة ، فوضى عدم الإقرار باحتضار البرجوازية، بنت "قيادات للأركان التحريفية" و" مراكز للدعاية المخصية" داخل حركة الشعوب المناضلة من أجل التحرر، من أي شكل لهذه البرجوازية التي تستبطن الهزائم داخل حركة الطبقة العاملة، التواقة لمعانقة العالم الجديد : عالم إعلان جنازة في حجم التاريخ ، في حجم التضحيات التي لا تحسب بالأرقام، جنازة الطبقة البورجوازية التي توفيت منذ سنين خلت، بورجوازية الرأسمال وسرقة فائض القيمة وكلبة حراستها من البرجوازية الوضيعة المنتهية الصلاحية منذ 14 فبراير 1 بلش.

البروليتاريا في العالم الآن، وفي 14 فبراير 100 بلش بالتحديد عام الذكرى الذهبية، تعي كامل الوعي أنه عليها كنس الفزاعات الثرثارة من الحصيد بكل حزم، كنس التحريفية الجديدة، كنس عرائس القصب من دعاة الماركسية اللينينية والمدعين لها، دعاة الاشتراكية قولا والرأسمالية فعلا، الطبقة الثرثارة جدا، وزعاماتها الكسولة حقا، خادمة الرأسمال المتوحش من تحت طاولة أسيادها القابضين على خصيتيها.

زعامات من ورق، تظهر على بساط الحراك الشعبي تحت الطلب، تختفي من المسرح تحت الطلب، برجوازية في جلباب الماركسية تطبل بدون أخلاق في آذان البروليتاريا بتعاليم رجعية حتى النخاع، باسم الفشل الصريح الذي يعشش في رحمها، باسم "مزاميرّ الفسق الفكري" و" الدعارة النظرية". تلعب الدور الرديء تماما، الدور المأجور: الحفاظ على الروح الشريرة العالقة بين الموت والحياة، روح سيدتها البرجوازية الكولونيالية.

لم يكن هذا الدور الرديء الانتهازي سمة هذا العصر فقط، بل كان دوما مدسوسا في حركيات الكادحين عبر كل المراحل، ولم تكن مقاومته جديدة، فقد اعتبرت الماركسية اللينينية منذ ماركس، أن تطهير حركية الثورة البروليتارية مهمة مركزية وعاجلة

لا تقل أهمية عن مواجهة الرأسمالية نفسها. لقد قال لينين كلاما واضحا، لا يقبل التأويل يمينا أو يسارا، وهو يحدد أسباب نجاح الحزب الثوري غداة الثورة العظمى حرفيا بما يلي:

"وكانت الانتهازية بطبيعة الحال العدو الرئيسي للبلشفية داخل حركة العمال، وهذا العدو لا يزال العدو الرئيسي في النطاق العالمي، وكانت البلشفية ولا تزال تعير الانتباه لهذا العدو أكثر من غيره، وهذه الناحية من نشاط البلاشفة غدت الآن معروفة بدرجة كافية حتى في خارج البلاد...إن أحد الأسباب الأساسية لهذا الانتصار، هو أن البلشفية كانت حتى منذ أواخر سنة 1914 تفضح دون رحمة خبث ودناءة وخسة الاشتراكية ـ الشوفينية و"الكاوتسكية"[2].

نالت كل القضايا حظها من التشويه الانتهازي التحريفي، ولم تسلم القضايا الثانوية ولا الرئيسية، ولأن قضية الدولة تقع في "التتويج النهائي للثورة" والمرحلة الحاسمة في الثورة اللينينية، فقد انصب حولها "طوفان من التشويه" وتعرضت للمسخ التحريفي الواسع، وقد انبرى كل من كارل ماركس وفريدريك إنجلز في أيامهما، وفلاديمير لينين فيما بعد، للرد على التحريفية والفاشية الاشتراكية في "مكتبة كاملة" من المؤلفات والأطروحات الصحيحة، ومنها على الخصوص أطروحة لينين حول الدولة : كتاب " الدولة والثورة ومهمات البروليتاريا في الثورة" الذي سنقوم بقراءة وعرض قضاياه في هذه الورقة.

1. الدولة إشكالية بالغة التعقيد:

2 . فلاديمير لينين، المختارات، المجلد الرابع، ص: 442.

الآن، وبعد التطور الخطير الواسع الذي يشهده النظام الرأسمالي الامبريالي المتوحش، وافتضاح الأزمات والتناقضات بينه وبين الشعوب الكادحة عامة، وبعد احتدام الصراع بين الطبقات المستغلة والمستغلة في كل مناطق العالم، سواء في مراكز الاحتكار الرأسمالي العالمي، أو في الهوامش الاقتصادية التابعة للنظام الرأسمالي العالمي ، وسواء في المناطق الساخنة التي تعج بالحروب الامبريالية المباشرة أو الحروب بالوكالة، أو في المناطق الأقل حرارة (صراع) والتي تنتظر الدور الحتمي لانتقال أزمة الصدام بين الطبقات وبين الرأسمال والعمل المأجور، تتهيأ ظروف الانتقال 0 إلى صدام كوني أخير.

وأيضا، بعد تغول الطابع الامبريالي للنظام الرأسمالي، وتراجع الدور السياسي والثوري للطبقة البروليتارية جراء خيانة القيادات المتبرجزة الوضيعة المحلية، وظهور نماذج واسعة وغريبة في كثير من الأحيان من أنواع التحريفية في الماركسية، تتغذى على نفايات الرأسمالية في أعلى درجات التوحش والهمجية، الآن، وبعد الاصطفافات الثورية الجديدة في محور " الفرز الحازم أمميا" من داخل الماركسية، الآن يمكن القول بدون شك، أن مفهوم الدولة، وهو يتبادل التأثير والتأثر مع أرضية الشروط والتحولات التاريخية المذكورة أعلاه، أضحى أكثر تعقيدا من ذي قبل .

هذا التعقيد يشمل بالجملة، كل النواحي التي تتركب منها عملية البحث في مسألة الدولة: النواحي النظرية والسياسية في البنى الفوقية، وقاعدة تطبيقاتها، سواء التاريخية أو الاجتماعية أو الاقتصادية في البنى التحتية، كما يشمل التعقيد في طرح قضية الدولة، كل ما وصلت إليه إلى غاية الآن، النماذج المطبقة بخصوص الموضوع، على الساحة الدولية في المرحلة التاريخية المعاصرة، أي احتمال وجود قضايا مهمة وجديرة بالتناول الماركسي اللينيني ، في خلاصات ما أسفرت عنه ثورات العهد القريب، في أمريكا اللاتينية بالخصوص، وبعض التجارب لبناء نموذج دولة "جديدة " بمواصفات خاصة، إذا كان ثمة من عناصر حاسمة في هذه الجدة: دول "انتفاضات البرجوازية الصغيرة" في جنوب وشرق المتوسط.

إن هذا التقديم الغارق في الوصف والدعاية، لا نقدمه لغرض أن يفهم منه، على أن مفهوم الدولة كان مبحثا بسيطا في مراحل ما من مراحل السيرورة/الصيرورة التاريخية، التي ميزّت الأنظمة ما قبل طبقية، والأنظمة الطبقية على السواء، وبالخصوص مراحل الأنظمة الرأسمالية بالذات، والتي تهمنا في هذا المحور، كما لا نقدمه من أجل أن يفهم، أن البحث في مسألة الدولة من وجهة نظر الماركسيين، عملية قد اكتملت في حقبة ما وعلى يد منظرين معينين.

لقد ظل كارل ماركس يصحح " أشكال المحاباة الفكرية" التي ما انفكت تمطر على رأسه من "المعجبين الماركسيين" إلى حد الضجر، وما أكثر الرسائل التي رد عليها بكثير من القلق والجفاء والعتاب الرفاقي في كثير من الأحيان، وهي على كل حال منشورة وتؤرخ لهذه الحالة، ليست سوى دليل على استحالة "الاكتمال " لا في البحث في المراحل التاريخية البائدة، أو التي هي الآن تقف على باب الإبادة، وحتما لن يكون سؤال الدولة استثناء في هذا الباب.

ألم يقل كارل ماركس وهو في حالة من الضجر المتعاظم، جوابا على رسالة جوزيف فيديماير[3] في 5 مارس من عام 1856 ما يلي:

"وفيما يخصني، ليس لي لا فضل اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع المعاصر، ولا فضل اكتشاف النضال فيما بينها، فقد سبقني بوقت طويل مؤرخون بورجوازيون، بسطوا التطور التاريخي لهذا النضال بين الطبقات، واقتصاديون بورجوازيون بسطوا تركيب الطبقات الاقتصادي، وإن الجديد الذي أعطيته، يتلخص في إقامة البرهان على ما يلي:

1 . إن وجود الطبقات لا يقترن إلا بمراحل تاريخية معينة من تطور الإنتاج.

3 . جوزيف فيديماير(1817/1866). قائد في حركة العمال الألمانية والأمريكية، اشترك في الحرب الأهلية في أمريكا، عضو عصبة الشيوعيين، كان صديقا لماركس وإنجلز.

2 . إن النضال الطبقي يفضي بالضرورة إلى ديكتاتورية البروليتاريا.

3 . إن هذه الديكتاتورية نفسها لا تعني غير الانتقال إلى القضاء على كل الطبقات، وإلى المجتمع الخالي من الطبقات[4].

فإذا تركنا جانبا قضية عدم رضا كارل ماركس، على اعتبار أن تأطير القضايا قد تنتهي عند مراحل أو أشخاص محددين، فإن ما يختبئ في هذه الرسالة الكبيرة، كون البحث في الأطروحات، مثلها تماما مثل البحث في الصراع الطبقي أو أكثر من ذلك بكثير، البحث في العملية التاريخية نفسها، هو عملية تاريخية في حد ذاتها.

إن البحث في الدولة كان دوما بحثا ملتوي المسالك، كثير العقبات، ولم يكن حكرا على الماركسية، ولا نعرف من المنظرين من لم يخرج بهذا الإقرار: كون البحث في الدولة من حيث المفهوم والدور والأشكال التاريخية، هو نفسه البحث في تاريخ البشرية منذ ظهور الإنسان إلى حدود الساعة.

فإذا اعتبرنا، أخذا بآراء ماركسية أو حتى ما قبل ماركسية، أن مراحل بدائية ما ، مراحل محددة من السيرورة الاجتماعية، ومن تطور البنى الجماعية، قد وجدت بدون شكل من أشكال الدولة، وأن هذا التواجد "اللادولتي" لنماذج من التجمع البشري، لم يكن في الحقيقة سوى شكلا من أشكال تطور العلاقات الإنسانية نحو التناحر الطبقي، وهو النموذج الذي انبثقت عنه، مثل الطحالب تماما، نظام الدولة.

إذا اعتبرنا هذه المرحلة الإعدادية للملكية الخاصة، الفردية والأنانية في نفس الوقت، يمكن القول جزما، أن البحث في الدولة، هو نفسه من وجهة النظر هاته، ليس في آخر المطاف، سوى البحث في تاريخ البشر على الأرض، من حيث الملكية

4 . ماركس وإنجلز، المختارات، المجلد الرابع، ص: 149.

والعلاقات المتولدة عن التملك بشكليه: التملك الخاص والتملك الجماعي المشترك، وربما أشكال خاصة من اللاملكية تكون قد سادت في مراحل سحيقة من تطور العلاقات الجمعية للعشائر البدائية.

2 . الدولة في الماركسية: مواجهة التيارات التحريفية

المرجو ألا يقلق هذا الأمر المتتبعين، أكثر مما يجب أن يقلقهم كل هذا الكم الواسع من التشويش، الذي تعرضت له الدولة من طرف أشباه الماركسيين، وأشباه المنظرين والعلماء المزيفين وسفهاء الفلاسفة البورجوازيين أو الاشتراكيين التحريفيين، الخدام المأجورين من البرجوازية الوضيعة.

كما يجب أن يقلقهم أشد القلق أشكال التطبيق العملي لنماذج الدولة، من طرف السياسيين، دعاة الاشتراكية الجديدة أي اللاشتراكية، لكن وبالمقابل، ولحسن الحظ ، فإن علما كاملا قد اكتملت كل أنساقه منذ زمن، على يد عظماء الشيوعية (ماركس وإنجلز ولينين وستالين وماو تسي تونغ ... وآخرين)، علم قوانين الديالكتيك الطبيعي والاجتماعي، علم للتطبيق الخلاق على الوقائع الاجتماعية الملموسة والمحددة : المادية الجدلية والمادية التاريخية، اللتان تنتصبان تماما مثل "القدر" في وجه كل محاولات التشويش والتحريف، ومحاولة فرملة الصراع الطبقي ، وتلطيف تناقضات العدو الطبقي للبروليتاريا وحلفائها من الكادحين والمعدمين.

يتفق إنجلز في مؤلف "أصل العائلة والدولة والملكية الخاصة"[5] مع الدراسة التي صدرت للمؤرخ لويس هنري مورجان[6] سنة 1877 بعنوان "المجتمع القديم" بعد أن استغرقت زهاء 40 عاما (تبنته خلالها إحدى قبائل الإيروكيوس في أمريكا) ، يتفق إنجلز حول ما أصطلح على تسميته ب "علم دراسة الشعوب البدائية"، مع ملاحظات كارل ماركس حول نفس المؤلف ونفس الكتاب ومع الأخذ بعين الاعتبار الملاحظات الهامة للأول حول الفكرة الأساسية التي مفادها : عدم وجود أي شكل من أشكال الدولة في المجتمع البشري الأدنى الذي قسمه مورجان إلى ثلاث مراحل :

1 . مرحلة الوحشية 2 . مرحلة البربرية 3 . مرحلة المدنية.

إن مورجان ذاته، قد أهمل العصر الأخير من "الصنافة"، والذي من المفترض أنه شهد، كما المراحل السابقة عليه، تطورا مهما في التملك الخاص، وبالتالي تطورا مطردا لا محالة في الانفجار التدريجي والمتمرحل، من الشكل البسيط جدا، إلى الأشكال الجنينية، ثم نحو أخرى أولية للدولة.

وإذ لا نتفق مع خلاصات نظرية مورجان بخصوص الملكية وظهور الدولة، فإننا نعتبر، طبقا للنظرية التاريخية، أن أشكالا محتملة من لحظات "تعشيش" علاقات محددة، وبعيدة في التاريخ في رحم التاريخ ذاته، هي التي شبت في شكل "جنينيات بدائية للدولة"، وأن المادة الخام الساكنة بدون حركة والمفترضة للدولة، لا يمكنها أن توجد طبق قوانين الجدل الطبيعي أو التاريخي. إن الدولة لم يكن لها أن تتطور إلا في شكلها التاريخي الذي تتطور وفقه دائما.

---

5 . فريدريك إنجلز. "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة". كتاب لإنجلز، وضع مقدمته في زيوريخ 1884، يتناول فيه أبحاثه المشتركة مع ماركس حول المادية التاريخية وتطور الصراع الطبقي وظهور الدولة كأداة للسيطرة الطبقية، تناول فيه (العائلة . السلالات . الدولة .) والتشكيلة والصراع الطبقيين في كل مرحلة تاريخية.

6 . لويس هنري مورجان،" المجتمع القديم" صدر الكتاب في لندن سنة 1877، وطبع في أمريكا.

لقد كانت دوما وأبدا شكلا تاريخيا حتى ضمن المراحل، التي سادت فيها الأسرة الطفولية، التي ينكر مورجان وجود داخلها لحظات للحركة وتشكل العلاقات البشرية. طبعا لا يمكن الحديث حول خاصيات الدولة كما هي ناضجة الآن، ورغم ذلك، فإن مراحل أدنى للأسرة الطفولية لها خاصيات من الحركة.

إن أشكال التملك الخاص هي في حد ذاتها ظاهرة تاريخية أي صراع طبقي ، غير أن هذا الأخير، لم يكن لينضج في جزيرة معزولة، وبذلك فالعائلة البدائية في مراحلها التي حددها مورجان، وبالخصوص (المرحلة الأدنى) لم تكن في الحقيقة سوى الشكل الأرقى لمراحل سابقة عليها.

3 . البحث في الدولة : هل هي مسألة ملحة بالنسبة للماركسيين اللينينيين.

يبدو أن الجواب السريع الذي يقفز للواجهة كلما انطرح هكذا سؤال هو:

نعم، إن البحث في الدولة وحيثياتها أمر ملح وعاجل بالنسبة لكل ماركسي ، غير أن الماركسي ليس وحده من يبحث في إشكالية الدولة، وليس وحده الذي تشكل هذه القضية بالنسبة له قضية حساسة وملحة، فالبورجوازي، وقبله الإقطاعي أيضا، يعتبر الدولة ضالته التي يجب أن يبحث عنها ويستوعب كل قضاياها.

فلماذا إذن تكون الدولة مهمة إلى الحد الذي يجعل "حثالة الإقطاعيين" و"السادة العبيد"، و "حرامية البرجوازية"، وفاقدو البوصلة من التحريفيين"، والمرتدين والفوضويين وتجار الكلام من جهة، والماركسيون اللينينيون الثوريون من جهة أخرى، يحاولون كلهم بجهد كبير، وفي سباق محموم مع عقارب الساعة، دراسة الدولة والتفقه في أشكالها كل من موقعه الطبقي والسياسي؟

الجواب السريع على السؤال الأخير ينهض من ملاحظة التناقض الحاصل بين طبقتين متصارعتين على كل الأصعدة في كل نزال، كل طرف نقيض يجند مفكريه وعلماءه وآلاته الإعلامية والتحريضية للبحث عن معاني وأشكال الدولة، الأمر هنا يتعلق بتناقض مصالح الطبقة التي تستغل (بالكسر) والطبقة التي تتعرض للاستغلال، الأمر/الصراع يدور حول قضية ذات أهمية قصوى في تحديد الدولة: الملكية.

لو اقتبسنا بعض التعابير البرودونية، لقلنا، من أجل التبسيط، تسعى الطبقة البورجوازية في نمط الإنتاج الرأسمالي إلى "سرقة" ملكية الفقراء وعامة الشعب وجعله في ملكيتها الخاصة /الفردية (مفهوم الاستغلال). وتحاول الطبقة العاملة مدعومة بالفلاحين الفقراء وبالماركسيين اللينينيين الحقيقيين إنجاز الثورة الاشتراكية، لاستعادة الملكية المسروقة، وجعلها ملكية جماعية، شيوعية لكل الناس (مفهوم التأميم والعدالة الاجتماعية)، وقد أعجب كارل ماركس بقولة برودون[7] "إن الملكية سرقة" رغم انتقاده للأخير في كثير مما طرحه، وليس من الصدفة أن الأداة التي يمكن استعمالها في الحالتين معا هي: الدولة.

يستعمل الرأسماليون الدولة للسرقة ويستعمل الشيوعيون الدولة لاسترداد المسروق، وإعادة توزيعه على منتجيه الأحرار، وسنعود لهذا الموضوع في فصل خاص، وبشيء من التفصيل لنرى آراء القادة الماركسيين في هذا الموضوع.

الآن سنمضي إلى تعداد الأسباب الأخرى لملحاحية البحث في الدولة، وللأهمية الكبيرة لهذا الموضوع لدى الماركسيين اللينينيين، وقبل هذا كله، نطرح ما إذا كان صحيحا أن الماركسيين قد أعطوا أهمية ما مفترضة، للبحث في الدولة، أم أن هذه

7 . برودون بيير جوزيف. (1809 . 1865). فيلسوف ومنظر "اللاسلطوية" عضو البرلمان الفرنسي بعد أحداث 1848، "ماهي الملكية"، "بؤس الفلسفة".

المسلمة مجرد وهم مسرب إلى مخيلتنا، ضمن سياقات ما، وأضحى شبيها بالحقيقة الثابتة، وللتحقق من ذلك، وجب العودة إلى القادة الماركسيين المؤسسين، ومن تلاهم ممن سار على خطى الماركسية.

إذا كان من المفترض وضع لائحة الماركسيين الذين انشغلوا إلى هذا الحد أو ذاك بنظرية الدولة، فسيكون من العبث إضاعة الجهد في هذا العمل، ذلك لأن جل الماركسيين قد انشغلوا بالدولة، من المؤسسين إلى مشوهي الماركسية، من الخبراء إلى المبتدئين، كما انشغل بها أشباه الماركسيين جميعا وانشغل بالدولة أيضا، الماديون والمثاليون، الأميون والمتعلمون، كما كانت الدولة الركيزة الأساسية لظهور الأديان والعبادات عموما. لنا أن نذكر بقولة فلا ديمير لينين، لنلخص دفعة واحدة هذا الانشغال الواسع بالدولة وبنظرياتها، يذكر لينين في سياق رصد التشويه للماركسية غداة الثورة البروليتارية في روسيا ما يلي:

"إن الثورة البروليتارية العالمية تتصاعد بصورة بينة، ومسألة موقفها من الدولة تكتسي أهمية عملية، فعناصر الانتهازية التي تراكمت في غضون عشرات السنين من التطور السلمي نسبيا، أنشأت تيار الاشتراكية . الشوفينية السائدة في الأحزاب الاشتراكية الرسمية في العالم بأسره، وهذا التيار يمثله بليخانوف، بوتروسوف، بريشكوفسكايا، روبانوفيتش، ثم المقنعون بقناع شفاف، السادة تيسيريتيلي، تشيرنوف وشركاؤهما في روسيا، شيدمان، ليغين، دافيد واضرابهم في ألمانيا، رينودل، غيد، فاندرفيلده في فرنسا وبلجيكا، هايندمان، والفابيون في انكلترا، وهلم جرا، وهو الاشتراكية قولا، والشوفينية فعلا، يتميز بكون "زعماء الاشتراكية" يتكيفون بذلة وحقارة، ليس فقط وفق مصالح بورجوازيتهم الوطنية، بل وعلى وجه الدقة، وفق مصالح دولتهم، إذ أن أكثرية ما يدعى بالدول الكبرى تستغل وتستعبد منذ زمن طويل جملة من الشعوب الصغيرة والضعيفة.

وما الحرب الإمبريالية سوى حرب من أجل اقتسام وإعادة اقتسام هذا النوع من الغنيمة، والنضال من أجل تحرير جماهير الشغيلة من نفوذ البورجوازية بوجه عام، والبرجوازية الإمبريالية بوجه خاص، يستحيل بدون النضال ضد الأوهام الانتهازية بصدد "الدولة"[8].

عدا مهمة التشويه الذي قاده هذا التيار الواسع من الاشتراكيين الانتهازيين، فإن هذا النص المأخوذ من مقدمة مؤلف (الدولة والثورة : تعاليم الماركسية حول الدولة، ومهمات البروليتاريا في الثورة) الذي طرحه لينين في غشت 1917، يشير، وفق قراءة أخرى إلى الانشغال الواسع لصنف خاص من الاشتراكيين (مشوهي ماركس) بنظرية الدولة نفسها، ويبدو الاهتمام بالدولة واسعا جدا، سنة تقريبا على انطلاق الثورة البلشفية، هذا علاوة على كون لينين يشير في أكثر من مكان، إلى أهمية العودة إلى أطروحات ماركس وإنجلز بصدد الدولة، وقد أوصى طلاب جامعة "سفيردلوف" في 11 يوليوز 1919 بضرورة العودة إلى كتابات فريدريك إنجلز، لتلمس الفهم الصحيح لنظرية الدولة، على إثر محاضرة كان قد ألقاها أمام الطلبة في نفس الجامعة.

يقول "وإني آمل كذلك أن تكرسوا بعض الوقت، إضافة إلى المحادثات والمحاضرات، لتقرؤو على الأقل بعضا من مؤلفات ماركس وإنجلز الرئيسية ... وإني آمل أن تطالعوا في مسألة الدولة مؤلف إنجلز "أصل العائلةوالدولة والملكية الخاصة" "[9]

قلنا إننا لن نضع لوائح مختلف الماركسيين الذين خصصوا في دراساتهم وخطبهم وأطروحاتهم، أو أدنى من ذلك بكثير، أي في أقوالهم التي سجلوها في مناسبات بذاتها، فهذا العمل الإحصائي ليس من مهام هذه الورقة، كما أنه عمل أقل مردودية بالمقارنة مع الهدف العام المحدد في "نظرية الدولة"، لنقل "قضية" الدولة لدى مؤسسي الماركسية الثلاث (ماركس وإنجلز

8 ـ لينين، "الأعمال الكاملة".

9 ـ لينين، "الدولة والثورة ومهمات البروليتاريا"، الطبعة الأولى، موسكو، غشت 1917.

ولينين)، إن هذا التحديد الإسمي الثلاثي ، لا يجب أن يعني بأي معنى غياب مساهمين في التأسيس للماركسية، سواء في المرحلة الأدنى بعض الوقت من وفاة العظيمين ماركس وإنجلز، أو بعد وفاة القائد ومهندس الثورة البروليتارية (البلشفية) في روسيا : فلاديمير لينين، إنما، ولأن البحث والتنظير للدولة لم يكن عبر التاريخ (التناحر الطبقي)، إلا شكلا من أشكال التحيز الطبقي، وإن استند إلى أكثر المبادئ العلمية رصانة ومنطقية ونبلا، بحيث لا يمكن افتراض شكل من أشكال تصور الدولة في مجتمع العبودية، حيث السيادة لملاكي العبيد، إلا لصالح هيمنة طبقة ملاكي العبيد، كما لا يمكن تصور شكل نقيض لذلك، لدى العبيد أنفسهم، تجاه مفهوم الدولة، إلا لصالح أن يتحرر العبيد من العبودية .

إن مفهوم الدولة هو مفهوم متحيز دوما داخل الصراع الطبقي، كما أن فهم الدولة في النظام القائم على العمل المأجور، لم يكن سوى هذا الصراع نفسه بين طبقتين: طبقة مستغلة (البرجوازية) وطبقة ترزح تحت جحيم الاستغلال (البروليتاريا).

هل يبدو واضحا أنه لا يمكن أن يوجد مفهوم متشابه للدولة، تتشارك فيه طبقتان في صراع جماعي طبقي، أليس من البداهة أن تنتصر طبقة على أخرى؟ إن هذا وحده دليل على عدم تقايس المبادئ المكونة للدولة بين طبقتين متناحرتين، وهذا تماما ما سجله التاريخ لحد الآن، شكل دولة الأقلية من الإقطاعيين ورجال الدين، وشكل الدولة لدى الفلاحين والأقنان، دولة البرجوازية مقابل دولة البروليتاريا والفلاحين الفقراء في العصر الرأسمالي.

حتى وإن استند تناول نظرية الدولة إلى أكثر المبادئ العلمية رصانة، وهذا الادعاء غير موجود أصلا، فإن الدولة وكل ما يدور في فلكها، هو شأن طبقي خالص، شكل من أشكال التحيز الطبقي. هل كان على الثورة البلشفية الانتصار في فهمها للدولة للعلم الخالص المستقل أم للبروليتاريا. إن الدولة وفي كل الحالات ليست سوى أداة سيطرة طبقة على أخرى.

ربما ينتظر الكثيرون تعداد عناصر ما مكونة للدولة، كأن نقول إن الدولة تتكون من (السلاطين والعسكر والشرطة والسجون...) أو من (الحكومة والبرلمانات والمحاكم وجباة الضرائب والقوانين....) ولو أن الماركسيين قد ذكروا مثل هذا في أكثر من مكان، لكن لكل تجربة عناصر بذاتها محددة للدولة، ويبقى الجامع بين كل التجارب، كون الدولة آلة للقمع تستعملها طبقة ضد طبقة من أجل الملكية، وهذه الآلة تختلف من تجربة تاريخية إلى أخرى.

ركزنا في الفقرة الأخيرة على خاصية القمع، كما ركزنا فيما سبق هذه الفقرة على خاصية سرقة الملكية الجماعية، وتحويلها إلى ملكية فردية/خاصة تحت احتكار وتصرف حفنة من اللصوص التاريخيين (البرجوازيون والإقطاعيون وملاكو العبيد)، ذلك فقط لنوحي بحقائق قد يتلمسها أي متتبع لإشكالية الدولة في المراحل الثلاث الموضوعة بين قوسين.

أولى الحقائق، أن الدولة كجهاز للسيطرة (هكذا يصطلح على تسميته في النظرية الماركسية اللينينية) لا توجد إلا في مراحل الاستغلال الشامل الواسع، وبكلمة واحدة، في مراحل تتميز بالاستغلال الطبقي، وانتفاء هذا الاستغلال، يساوي انتفاء الدولة ذاتها، بحيث أنه ليس من الضروري، وجود أي آلة للإخضاع العنيف لطبقة ما، إذا لم يكن تمة أي طبقة تمارس أو تنوي ممارسة الإخضاع، إذا لم تكن هناك طبقة يمكن أن تتلقى وينزل عليها هذا الإخضاع القسري والعنيف.

الحقيقة الثانية، التي يمكن تلمسها فيما سبق هي، كون الدولة في شرعة الطبقات المستغلة ليست وسيلة لإنتاج العدالة والديمقراطية، فالعدالة والديمقراطية وغيرها من الأكاذيب الجميلة آخر ما تفكر فيه الطبقات المبنية على الاستغلال، أما أن تكون دولة بورجوازية ديمقراطية فهذا هو العماء بعينيه.

الحقيقة الثالثة، كون الدولة لا توجد إلا حيث يوجد الاستغلال، ومن تم الصراع الطبقي، وهذا يوجب الإقرار بأن مرحلة ما من مراحل تطور التاريخ، لم يكن أي شكل من أشكال الدولة موجودا، وهذا صحيح، وسوف نتعرض لذلك بالتوضيح عندما

نعود في هذا العرض المختصر للدولة من وجهة نظر الماركسية، مع نظرية "الدولة والثورة " لدى لينين، والذي سيحيلنا كما هو معروف مرات ومرات إلى أطروحات إنجلز وماركس في الدولة.

طبعا، في المجتمعات الدنيا البدائية والقبلية بعدها، حيث لم يكن تواجد السلالات والعشائر يقوم على الملكية الفردية، وحيث لم يكن الإنسان ليحتاج إلى مراكمة الملكية، لم يكن هناك أي داع للدولة. إن شكل الديمقراطية (البدائية) في المجتمع البدائي، وشكل المساواة في الملكية، لا يستوجب آلة للقمع، أو للإخضاع أو للسرقة وللسيطرة عموما. كما أن مرحلة عليا من مراحل العملية التاريخية، لن تكون أيضا مثلها مثل المرحلة الدنيا، في حاجة إلى الدولة كأداة للسيطرة، وهذه المرحلة هي المرحلة "الشيوعية "، مرحلة زوال الاستغلال بزوال الملكية الخاصة، وحسب لينين ، وقبله ماركس وإنجلز، مرحلة "الاضمحلال التدريجي للدولة" منذ بداية الطور الاول للشيوعية، أي الاشتراكية حسب تعريف ماركس.

يقول لينين:

"كيفما كانت الأشكال التي تتغطى بها الجمهورية، حتى ولو كانت الجمهورية الأوفى ديمقراطية، ولكنها إذا كانت جمهورية بورجوازية، إذا بقي فيها التملك الخاص للأرض والمعامل والمصانع، وإذا كان رأس المال الخاص، يبقى المجتمع كله ضمن عبودية العمل المأجور، أي كان لا يجري فيه ما أعلنه برنامج حزبنا والدستور السوفياتي، فما هي إلا آلة يقمع بها البعض الآخرين. ونحن نضع هذه الآلة في أيدي تلك الطبقة التي يتعين عليها أن تسقط سلطة رأس المال، نحن ننبذ جميع الأوهام القديمة القائلة، أن الدولة هي المساواة العامة)[10]

1) الدولة آلة يقمع بها البعض الآخرين.

10 . لينين، "الدولة والثورة ومهمات البروليتاريا"، الطبعة الأولى، موسكو، غشت 1917.

2) الدولة ليست هي المساواة العامة كما تزعم الأوهام القديمة .

3) لكن الدولة ضرورية للطبقة العاملة والفلاحين من أجل إسقاط سلطة رأس المال.

هذه المقولات الثلاث هي خلاصة النظرية الماركسية اللينينية حول الدولة، وهي أيضا خلاصة النقاش والصراع الداخلي داخل الماركسية نفسها حول الدولة، بين اللينينية والفوضوية والكاوتسكية وسائر الاتجاهات التحريفية، وهي خلاصة التجربة التاريخية والتطبيقية لكومونة باريس، التي درسها كارل ماركس، والتي أوحت لماركس وإنجلز بمقولة "شيخوخة البيان الشيوعي في بعض جوانبه"، وأدت إلى مراجعة البيان العظيم.

1) الدولة ضرورة ملحة للثورة.

2) وهي أيضا غير ضرورية .

3) الدولة تستعمل.

4) والدولة تضمحل أي تنتفي.

لم يفهم التحريفيون متى تكون الدولة ضرورية لاستكمال مهام الثورة البروليتارية، أي أن تصبح آلة للهجوم على الأقلية المحتكرة للملكية، وآلة للدفاع أيضا، ضد الثورات المضادة، ضد عودة الاستغلال.

في هذه الحالة /المرحلة التاريخية الحاملة لهذه الشروط والسمات السياسية العامة، تكون الدولة كجهاز للقمع والدفاع، ضرورة ملحة يجب بناؤها واستعمالها لهذا الهدف الديمقراطي النبيل: إما إعادة توزيع عادل للملكية على عموم الكادحين

(الأغلبية من الشعب الجائع للخبز وللعدالة) أو حماية الملكية التي أصبحت ملكية الجميع/الدولة من عودة الأقلية لاحتكارها (الثورة المضادة). وهذه إحدى خاصيات الدولة الديمقراطية الشعبية.

لكن، وبالمقابل "تضمحل " الدولة تدريجيا عندما تنتصر الثورة نصرا نهائيا، وتولد مرحلة تاريخية "كاملة" من رحم الرأسمالية وعلى أنقاضها، هذا في المرحلة الشيوعية العليا، والتي من المفترض أن تدوم، ليس أياما أو شهورا، بل حقبة تاريخية طويلة نسبيا.

يقول لينين بهذا الصدد: "عندما تزول من العالم إمكانية الاستغلال، عندما ينعدم ملاكو الأراضي وملاكو المصانع، عندما يزول هذا الوضع الذي يصاب فيه البعض بالتخمة ويجوع آخرون، عندما تزول إمكانية ذلك، عندئذ فقط، نترك هذه الآلة للتحطيم، عندئذ تزول الدولة ويزول الاستغلال، وتلك وجهة نظر حزبنا الشيوعي"[11]

4. تصورات غير مادية حول الدولة

قبل عرض أفكار الزعيم الشيوعي فلاديمير لينين حول الدولة، نود لضرورة منهجية، تتعلق بإمكانية المقارنة بين تصورات مختلفة حول الموضوع، إعلان تعدد التصورات وذلك مثل جل أغلب القضايا الأساسية الأخرى، أن الاختلاف يعود دوما إلى اختلاف زوايا التناول، والخلفيات الفكرية والإيديولوجية والاصطفاف الطبقي في غالب الأحيان.

ولكي نمر بسرعة نحو التناول الذي يهمنا، نورد بعض التصورات المشهورة في موضوع الدولة، على أن اختلافها يفرض موضوعا أو حتى مواضيع كثيرة للبحث في المسألة.

---

11. لينين، "الدولة والثورة".

ا. النظرية الثيوقراطية:

وترجع نشأة الدولة إلى رغبة "الله" في تحقيق العدالة بين الناس بواسطة مبعوثين أو خلفاء في الأرض، إن هذا التصور للدولة ساد خلال مراحل طويلة من تطور التاريخ البشري، غير أن دولة أو دول "الله" لم يسجل التاريخ سوى إنتاجها لأقصى درجات الاستغلال الطبقي والظلم البشري، الذي قادته عبر التاريخ الإنساني، كما لم يسجل تاريخ البشرية، سوى تحول "مبعوثي الله" إلى "مشعلي حروب" دينية في المظهر، وطبقية في الجوهر، وهذا مرّ المراحل الثلاث الكبرى للتحول التاريخي، ولا زالت هذه السمات تطبع نماذج معاصرة للتصور الديني الرجعي للسلطة والدولة حتى الآن.

ب. الدولة كعقد اجتماعي:

أبرز مفكري هذا الاتجاه هم هوبز[12] وروسو[13] ولوك[14] وقبلهم الإغريقي أبيقور[15]، وملخصها، أن الدولة وليدة تعاقد بين الشعب والحاكم، باعتبار أن الشعوب قد أضحت بحكم آلاف السنين من التاريخ ناضجة ومتحضرة، ولم تعد تعيش أفكارا ورغبات عتيقة سادت في مراحل عتيقة من التاريخ .

وهي بذلك ترفض الأشكال القديمة للسلطة، وسبق أن ناضلت من أجل هذه الحقوق، وسجلت بطولات واسعة ضد الحكم الفردي أو الثيوقراطي، وأشهر قولة في التجربة التاريخية لهذا التصور، القولة التي كانت ترددها البرجوازية الإنجليزية على

12 . هوبز توماس. (1588 . 1679) ، فيلسوف ومؤرخ انجليزي، مناصر للملكية المطلقة و المدرسة العقلانية، و واضع أساسيات "العقد الاجتماعي".
13 . روسو جان جاك. (1712 . 1778). فيلسوف وكاتب وأديب وعالم نبات فرنسي من مفكري عصر الأنوار، ساعدت أفكاره التنويرية على قيام الثورة الفرنسية.
14 . جون لوك. (1632 . 1704)، فيلسوف تجريبي انجليزي، من المساهمين في العقلانية و"العقد الاجتماعي".
15 . أبيقور(341 . 270 ق. م)، من ساموس في بحر إيجا باليونان، مؤسس تيار الأبقورية في الفلسفة، وصاحب فلسفة الوصول إلى السعادة.

مسامع الملك : "لا ضرائب دون تمثيل"، ويشير ذلك إلى تعاقد بين الشعب والحاكم حول الضرائب، مقابل التمثيل في مجلس الشعب، لكن هذا التصور مثل سابقه، لم يخرج عن مجرد اتفاق حول المشاركة بين الطبقة المستغلة والمستغلة، في أمور أتخاذ قرارات معينة ولم يشمل الملكية ذاتها.

ج . نظرية الدولة كتطور أسري:

هذه النظرية تزعم أن الدولة مجرد حدث عارض وقع خلال تاريخ ما، عندما استطاع البعض السيطرة على السلطة داخل القبيلة أو العشيرة بالقوة وإخضاعها للأوامر، ثم توالى عبر مراحل مختلفة نفس التصرف، إلى أن اكتسب خصائصه النهائية في شكل الدولة، غير أن هذه النظرة اللاتاريخية جد مغرقة في المثالية والصدفوية وفي البلادة.

5 . فلادمير لينين : الدولة والثورة ومهمات البروليتاريا، "اضمحلال" الدولة وخبرة كومونة باريس 1871.

يشير لينين في التقديم الذي وضعه لأطروحة الدولة (غشت 1917)، إلى السبب المباشر الذي جعل من الحديث عن الدولة ذا أهمية قصوى كما يلي:

"إن الأهوال والنكبات المنقطعة النظير ، الناجمة عن الحرب التي تستطيل، تجعل الجماهير في حالة لا تصدق وتشدد سخطها، إن الثورة البروليتارية العالمية تتصاعد بصورة بينة، ومسألة موقفها من الدولة تكتسي أهمية عملية... إن عناصر الانتهازية التي تراكمت في غضون عشرات السنين من التطور السلمي نسبيا، أنشأت تيار الاشتراكية الشوفينية السائدة في الأحزاب الاشتراكية الرسمية في العالم بأسره "[16].

16 . لينين فلاديمير "الدولة والثورة ، ومهمات البروليتاريا في الثورة".

السبب الأول هو الحرب الإمبريالية العالمية الأولى، ونتائجها المنتظرة على الطبقة العاملة في البلدان المستعمرة، وعلى وضعها داخل البلدان الامبريالية نفسها غداة التحول الهائل للرأسمال إلى الطابع الاحتكاري الدولي والامبريالي.

والسبب الثاني هو توسع الاتجاهات الانتهازية المشوهة للماركسية خلال المراحل السلمية نسبيا للصراع الطبقي . وقد خصص لينين الكثير من الجهد والوقت لفضح هذه التيارات التحريفية بالعودة مرارا لماركس وإنجلز. ومن بين التيارات التي نالت النقد الحازم تيار "كارل كاوتسكي"[17] أحد زعماء الأممية الثانية (1889 . 1914) . فلنعرض التشويهات التي حددها لينين:

التشويه الأول: فكرة التوفيق بين الطبقات.

يذهب المناشفة والاشتراكيون الديمقراطيون، إلى أن الدولة جهاز للتوفيق بين الطبقات، أي لتلطيف الصراع الطبقي ، ولتسييد الصلح بين الطبقات المتناحرة، وبالخصوص بين البورجوازية والبروليتاريا والفلاحين وعموم المستغلين، وهي نظرة أعلن لينين تفاهتها جملة وتفصيلا، بكون استحالة التوفيق بين الطبقات إلا في حالة واحدة: حالة الملكية المشتركة وانتفاء الاستغلال الطبقي. إن هذا الطرح ليس ماركسيا وليس طرحا ثوريا، حتى وأن أصحابه كانوا يدعون الانتماء إلى الماركسية، وقد سبق للينين أن عبر عنه بقولة جامعة: "إنهم ماركسيون قولا وتحريفيون فعلا".

17 .كارل كاوتسكي (1854 . 1938) فيلسوف وصحافي وسياسي من أصول نمساوية، وبعد موت إنجلز، أصبح المنظر الرئيسي للحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني، وهو أحد زعماء الأممية الثانية، وكان يلقب ب "بابا الماركسية"، وعرف بكونه كان نصير الاتجاه الوسطي في الاشتراكية الديموقراطية قبل أن ينهار ويرتد عن الماركسية.

أطروحة التوفيق بين الطبقات أطروحة بورجوازية صغيرة، وليست أطروحة بروليتارية ثورية، وقد قاد البلاشفة بقيادة لينين معارك فكرية وميدانية ضد هذه التيارات، ونجحوا في نقد أطروحاتهم، وتوضيح استحالة التوفيق بين الطبقات المتناحرة، فالدولة نفسها لا تظهر إلا في مرحلة استعصاء هذا التوفيق، فلو كان التوفيق بين الطبقات المتناحرة ممكنا في وضع طبقي ما، لكان من العبث ظهور آلة اسمها الدولة.

كان على لينين الاحتكام إلى الواقع التاريخي في كل مرة، كما كان عليه الرجوع إلى ماركس وإنجلز لإعادة بعث أفكارهما حول الدولة، هذه الأفكار التي تتعرض في كل مرة إلى "التلطيف" من طرف المناشفة والاشتراكيين البرجوازيين الصغار في روسيا، وفي باقي الدول الأخرى.

لذلك فقد فضح، معتمدا على آراء ماركس، كون المشوهين للماركسية إنما يهاجمون بعقلية بورجوازية أهم سلاح لدى البروليتاريا والشعوب المظلومة، يمكن أن تستعمله للتحرر من الاستغلال الطبقي وتحقيق مجتمع وعالم العدالة البروليتارية. هذا السلاح هو مشروعية العنف تجاه الطبقة المستغلة. إن القول بالتوفيقية، هو استهداف للحق في الثورة الحادة على الظلم، والذي يبقى أهم قاعدة ماركسية على الإطلاق.

التشويه الثاني: كاوتسكي ضد تحطيم الدولة البورجوازية ومع أكذوبة الدولة الديموقراطية الخالصة.

يفتح كارل كاوتسكي طريق الارتداد عن الماركسية والثورة البروليتارية من خلال طرح السؤال التالي: "لأية أسباب يجب أن ترتدي سيادة البروليتاريا بالضرورة، شكلا لا يتلاءم مع الديمقراطية؟".

إن كاوتسكي يستبطن ذكر شكل الديمقراطية وطبيعتها، إذ لا وجود لأي ديمقراطية معلقة في فراغ، ولكي نعيد صياغة قولة كاوتسكي فيما يفرضه السياق الذي يسوقه في الإحاطة بموضوع الدولة الديمقراطية بعد الثورة البروليتارية، يجب أن تصاغ الإشكالية على النحو التالي: " لأي أسباب يجب أن ترتدي سيادة البروليتاريا بالضرورة شكلا لا يتلاءم مع الديمقراطية "البورجوازية"؟ لقد أكد لينين غير ما مرة وبشتى الأساليب عن خطورة "كاوتسكي الكذاب"، و"مزور ماركس" "وطاحونة الكلام الفارغ"، وطبعا قد خصص الكثير من الأعمال لنقد كاوتسي، كان أهمها "الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي". إن هذا الاستبطان المقصود في حذف طبيعة الديمقراطية والسكوت الممنهج عنها، كان المقصود منها جعل ماركس " بورجوازيا أخرقا "بتعبير لينين، بمعنى تزوير ماركس، وجعل أفكاره تبدو بورجوازية وغير شيوعية.

لكن، ولكي نقترب أكثر من التشويه الذي قاده كاوتسكي بخصوص الدولة، نتركه يوضح بجلاء خاص الأطروحة البرجوازية الصغيرة، يقول كاوتسكي:

"فإذا حاكم (يعني الشيوعي) بالطريقة الماركسية، ترتب عليه أن يقول: إن المستغلين (كسر الغين) يحولون الدولة بالضرورة (والحال يدور الكلام هنا عن الديمقراطية، أي عن شكل من أشكال الدولة) إلى أداة لسيطرة طبقتهم، طبقة المستغلين على المستغلين (فتح الغين)، ولهذا فإن الدولة الديمقراطية أيضا ستكون أيضا دولة المستغلين (كسر الغين) ما دام هناك مستغلون يبسطون سيطرتهم على أغلبية المستغلين. أما دولة المستغلين (يقصد الكادحين)، ينبغي أن تكون ديمقراطية للمستغلين (الكادحين) وتقمع المستغلين(البرجوازيين)، والحال، أن قمع طبقة ما، يعني عدم مساواة هذه الطبقة، إقصاءها عن "الديمقراطية"[18].

18 . لينين فلاديمير "الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي" المختارات، ص: 180.

سنلاحظ بوضوح كل هذا الالتفاف الواسع عن الحقيقة، كل هذا "البرميل من الكلام " من أجل تبرير توصية تحريفية واحدة هي: أرجوك أيتها الثورة البروليتارية العظيمة لا تقصي البورجوازية التي استغلتك من التمثيلية السياسية، في حالة انتصارك العظيم عليها، لأن الديمقراطية البورجوازية تعني ضمان تمثيلية كل الطبقات، كما تعني التآخي بين هذه الطبقات، والحال أن الدكتاتورية البورجوازية لا تنبني على مشاركة الجميع، هكذا كما يوهمنا الرجل، فكل ديمقراطية هي صراع طبقي وهي حتما استغلال طبقة لطبقة أخرى.

لكن لماذا اخترع معاصر ماركس وإنجلز، "المرتد كاوتسكي " أطروحة "الديمقراطية الخالصة"، ولماذا يوصي الشيوعيين بها؟

إن كلام كاوتسكي موجه إلى الحزب البلشفي مباشرة، وموجه ضد لينين نفسه، فلينين يخبر في كتابات عديدة بامتعاض كاوتسكي من عدة أمور، قد تقلق بورجوازية ألمانيا من خلال نجاحات الثورة في روسيا، وهو إذ يفضح تخوفات البورجوازية الصغيرة التحريفية، المندسة في الأحزاب الاشتراكية الألمانية وقتئذ، وفي الأممية الاشتراكية في نفس المرحلة، يعدد هذه الأسباب كالتالي:

ا. خوف كاوتسكي على البورجوازية المنهزمة إبان الثورة البلشفية.

ب. قلق كاوتسكي من حل "الجمعية التأسيسية "، التي كانت تضم ممثلين عن البرجوازية الروسية.

ج. الخوف من إتمام مهام الثورة بإلغاء الطابع البرجوازي للثورة، والسير قدما في برنامج "السلطة كاملة للسوفييتات".

إذن فالردة لدى كاوتسكي تتضح في أطروحتين على الأقل فضحهما لينين أشد الفضح، أطروحة التآخي بين الطبقات، وأطروحة الدولة الديمقراطية الخالصة، لكن، ولكي يتحقق له ذلك، كان لابد له من إعادة قراءة ماركس وإنجلز على نحو

خاطئ، وتزوير ماركس من أجل الانتصار للتيار البورجوازي الصغير أيضا داخل الأممية، لكن التزوير والإشاعة لا ينجحان، فإنجلز كان واضحا في هذا الشأن تمام الوضوح، بحيث لا يحتاج لكثير من العناء ليقدم تصوره هو، وتصور ماركس أيضا، لمفهوم وطبيعة وأهداف الدولة، وشكل ديمقراطية الدولة البروليتارية، يقول في رسالة إلى بيبل ما يلي :

" إن الدولة ليست إلا جهازا لقمع طبقة من قبل طبقة أخرى، وهذا ما يصدق على الجمهورية الديمقراطية، بدرجة لا تقل إطلاقا عن صدقه على الملكية"[19]

مع كل هذا العداء للثورة في روسيا ولقرارات فلاديمير لينين ذاته، وكل هذا الانبطاح للبورجوازية فقد عاد إثر وفاة لينين ليمدح الرجل، ففي 21 كانون 1924 طلب رئيس تحرير جريدة "الإيزفيستيا"(صحيفة روسية) من كاوتسكي أن يكتب عن وفاة لينين، تفاجئ كاوتسكي أن يطلب منه ذلك رغم كل هذا الجفاء بينه وبين زعيم الشيوعية (راجع كتاب " الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي")، ورغم ذلك كتب ما يلي:

"وأسجل في الوقت نفسه أني ورغم كل تحفظاتي حول طرائق لينين، لم أيأس البتة من وضع الثورة في روسيا... عندئذ ومع كل الشغيلة في روسيا، وكل الشغيلة في العالم، ومن دون أي انقسام في الحركة، سنتذكر بامتنان كبير الرواد العظام لهذه الثورة، أولئك الذين خلال عقود كاملة من النضال والمحن، هيئوا لها في روسيا وقادوها إلى النصر، وبالتالي، حتى بالنسبة للذين يعارضون الحزب البلشفي اليوم، لن يغيب إسم لينين عن ذلك البانتيون)[20].

19 . فريدريك إنجلز، "رسالة إلى بيبل"، المختارات" أو "مراسلات ماركس وإنجلز".
20 .كارل كاوتسكي، رسالة نعي في حق لينين من فيينا، 24 كانون الثاني 1924، صحيفة "الإيزفيستيا".

التشويه الثالث : الفوضويون وأطروحة "اللادولة أواللاسلطة على الإطلاق".

تناول فلاديمير لينين في كتاب الدولة والثورة ومهمات البروليتاريا في الثورة" بدرجة أقل، نقد التيار الفوضوي في الماركسية، فباستثناء فصل قصير تحت عنوان "جدال بليخانوف [21] مع الفوضويين"، جاء في الفصول الأخيرة تقريبا من أطروحته حول الدولة والدولة البروليتارية، لم يخصص الكثير من الجهد والتفصيل النظري والفضح الدقيق مثلما خصص للتحريفية الكاوتسكية، أو الانتهازيين الاشتراكيين الثوريين وغيرهم، هذا على خلاف أطروحاته الفلسفية التي عمم فيها النقد الواسع لمجمل التيارات التحريفية في أوروبا آنذاك، وعلى خلاف أيضا كارل ماركس وفريدريك إنجلز، اللذان خصصا الكثير من العمل في اتجاه نقد فلسفة برودون وآراء باكونين[22] الفوضويتين.

ولا نجد سببا دامغا لقلة الاهتمام هذا ، غير كون التيارات الفوضوية التي تأسست في عهد ماركس وحتى قبل ماركس بقليل، ضمن الفلسفة الألمانية والفرنسية بالخصوص، كانت إلى هذا الحد أو ذاك ضعيفة وغير ذات تأثير في المرحلة التي يتناولها كتاب "الدولة والثورة" للينين، غير أن ذلك لا يعني أن هذا الاتجاه التحريفي في الماركسية كان غائبا تماما في هذه المرحلة، أو كان منعدم الوجود عشية الثورة البلشفية العظيمة، فقد سادت أحداث بارزة إبان الثورة قادتها شخصيات فوضوية متأثرة بتعاليم باكونين حول الدولة والسلطة كان أهمها تجربة "فولين "، حين عاد إلى روسيا في يوليوز 1917 فلم يجد داخل

21 . بليخانوف (جورج) (1856-1918) أحد الماركسيين الروس الأوائل، فبعد انفصاله عن الشعبويين، أسس اول مجموعة ماركسية في روسيا (تحرير الطبقة العاملة)، وكان عضوا في هيئة تحرير جريدة " الإيسكرا" إلى جانب لينين وآخرين، وبعد المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي انضم إلى الجناح المنشفي في الحزب وظل معاديا للبلشفية إلى حدود وفاته.

22 . باكونين ميخائيل (1814 . 1826)، ديمقراطي روسي، اشترك في ثورة 1848 بألمانيا، زعيم فوضوي، عدو لدود للماركسية في الأممية الأولى، طرد من الأممية لفوضويته التي يلخصها شعار "اللادولة، اللاسلطة، اللاقيادة".

روسيا، وبالخصوص داخل الفلاحين، حيث من المفترض نمو "التعاليم الفوضوية " كما هو متواتر تاريخيا، أي تأثير ذا شأن، كما أنه لم يجد أي تمثيلية للفوضويين الروس داخل التجربة الثورية الجديدة في روسيا ما بعد القيصر رومانوف، وبالخصوص داخل السوفييتات.

وعلى خلاف فولين كان الشاب الأوكراني الأصل "نيستور ماخنو" فوضويا، قاد حركة الفلاحين ضد الثورة، إلى أن هزم على يد الجيش الأحمر، كما قادت جزيرة "كرونشتاد" حركة فوضوية عسكرية سنة 1921 ضد البلشفية تحت شعار "الثورة الثالثة" ، و كانوا معروفين بأصحاب الراية السوداء، على خلاف الراية الحمراء للبروليتاريا والبيضاء لأنصار القيصر، وكان شعارهم الفوضوي " ثورة بلا دولة" معتنقين الأراء الباكونينية، وقد سجل إعجاب فولين وفوضويي روسيا بكلتا الحركتين وبشعاراتها حول "اللادولة واللا سلطة واللا قيادة"، أي ما يصطلحون على تسميته مع برودون وباكونين ب "الدولة الحرة".

لم تكن الفوضوية رغم ذلك قد كونت حركة تاريخية في روسيا، كما أن أفكارها لم تجد التربة الملائمة للنمو مثلما نمت الأفكار التحريفية الأخرى، وربما يكون البريق الواسع للبلشفية وانتصاراتها الكبيرة سببا في ضعف الفوضويين، وقد جمد العديد منهم تعاليمه أمام الأمر الواقع، الذي يجري آنذاك في تاريخ البروليتاريا، أو انضموا ببساطة إلى الحزب البلشفي نفسه.

لكن ومن وجهة نظر أخرى، فإن تعاليم الفوضوية بشأن الدولة كانت أساسية للنقد في هذه المرحلة من الثورة والتدقيق من طرف لينين في التعاليم الفوضوية، في سياق الكلام عن الدولة، كان سيعطي لا محالة دفعة كبيرة في محاججة ودحض التحريفية، سيما وأن الأفكار الباكونينية وغيرها في الدولة تعد "استثنائية" بالمفهوم السلبي، بل "غريبة الأطوار" و"سخيفة"، كما ينعتها الكثير من الماركسيين وغير الماركسيين.

ولد باكونين زعيم الفوضوية سنة 1814، وتوفي سنة 1876، سجن لسنين في روسيا، وشارك في العديد من الانتفاضات، ولسخرية القدر أن أغلب هذه الانتفاضات فشلت. تلخص تعاليمه حول الدولة (ضد كل سلطة كيفما كانت) هكذا:

"إننا بصرخة السلام للعمال، والحرية لكافة المضطهدين، والموت للمسيطرين والمستغلين والمحافظين من كل نوع، نريد تدمير كل الدول وكل الكنائس وكذا كل مؤسساتهم وقوانينهم الدينية والسياسية والمالية والبوليسية والجامعية والاقتصادية والاجتماعية، كي يتمكن أخيرا ملايين البشر المخدوعة والمستعبدة والمضطهدة والمستغلة، من التحرر من كل قادتها، ومن المحسنين الرسميين وشبه الرسميين، الافراد والجماعات، والتنفس أخيرا بحرية".

بجملة واحدة، فإن باكونين يريد إفناء الكون "فورا" وإعدام التاريخ "قسرا" من أجل ما يسميه الحرية أو "اللاسلطة على الإطلاق"، حتى لو كانت هذه السلطة سلطة البروليتاريا في مرحلة تحطيم الاستغلال نفسه.

تميزت الفوضوية بتاريخ مثير للشفقة، ففي عام 1870 احتل باكونين وجماعته مقر بلدية ليون (مدينة فرنسية)، وأعلنوا إلغاء الدولة، لكنهم تعرضوا لأسوء قمع، وفرباكونين إلى إيطاليا، وانتصرت كومونة باريس عاما بعد ذلك.

يورد لينين في كتاب "الدولة والثورة " نصا ساخرا لكارل ماركس ضد الفوضويين أتباع برودون، أنصار "اللادولة ..اللا سلطة على الإطلاق". النص الماركسي يسخر من فكرة إلغاء الدولة "الفوري" الذي يتبناه الفوضوي برودون واتباعه. يقدم ماركس في المقال عموما، الفهم الصحيح للدولة في التناول الاشتراكي، ويتناول بالخصوص الفكرة القائلة بإلغاء الدولة "فورا" أي فور إعلان الثورة نفسه.

إن ماركس لا يختلف حول الشكل العابر للدولة، ولا حول طبيعتها الطفيلية الواقعة فوق الطبقات، ولا كونها كانت دوما دولة "الأقلية التي تستغل الأغلبية"، ولا حول حتمية اضمحلال وانتفاء هذا الجهاز الطفيلي، لكنه يختلف حول السؤال، متى يصبح انتفاء الدولة ضرورة تاريخية محضة، وكيف يتم ذلك، ولصالح أي نظام اجتماعي، فماذا يقول كارل ماركس:

"إذا كان نضال الطبقة العاملة السياسي يتخذ أشكالا ثورية، وإذا ما أقام العمال ديكتاتوريتهم الثورية مقام ديكتاتورية البرجوازية، فهم يقترفون بذلك جريمة منكرة، جريمة إهانة المبادئ، لأن العمال لكي ما يسدوا حاجاتهم اليومية الحقيرة الفظة، لكي ما يحطموا مقاومة البرجوازية، يعطون الدولة شكلا ثوريا وعابرا بدلا من أن يلقوا أسلحتهم ويلغوا الدولة"[23]

ماذا يطرح ماركس على الفوضوي برودون؟ ما الطرح الصحيح لإلغاء الدولة؟ متى؟ وكيف؟

1 . القضية لدى ماركس لا تتعلق بالهدف النهائي للثورة البروليتارية، وهو أن كل هذا النضال العمالي، هو في الحقيقة من أجل إلغاء الدولة وتحقيق مجتمع لا طبقي، لا يكون للدولة فيه أي مبرر اجتماعي للوجود كجهاز طبقي.

2 . القضية /الخطأ لدى برودون، أنه يتكلم عن الدولة بوصفها دولة، وليس بوصفها دولة البروليتاريا المنتصرة حديثا على الديكتاتورية السائدة لقرون كاملة. ليس من الصواب مطالبة البروليتارين عمالا وفلاحين وكادحين، إلغاء دولتهم المنتصرة حديثا "فورا"، في حين لا زالت فلول البورجوازية تتربص بالمضطهدين، أو كون البورجوازية ومعها جيوش من المرتدين الاشتراكيين يعيدون رص الصفوف من أجل الهجوم المضاد.

23 . كارل ماركس. نقلا عن لينين "الدولة والثورة".

3 . إن جميع الاشتراكيين متفقون على أن الدولة تزول، وهم لا يعملون إلا من أجل ذلك، لكن لا يمكن للدولة أن تزول إلا حين يصبح المجتمع الجديد، "النظام الاجتماعي الجديد، الذي يولد من رحم وعلى أنقاض القديم"، عندما يصبح حقيقة تاريخية، عندما تصل الثورة إلى أعلى مراحلها، المرحلة المتقدمة والأخيرة، مرحلة الشيوعية، حيث لا وجود للطبقات المتناحرة، ولا وجود للمصالح المختلفة بين الطبقات، أي لا وجود للملكية الخاصة. والأكيد أن هذا لا، ولن يحدث "فورا"، ولا يحدث دون استعمال الدولة كجهاز لتحطيم الدولة البرجوازية، وبناء الأسس الاقتصادية التي تنفي الطبقات، كما أنه لن يحدث من تلقاء نفسه وبدون أي جهاز.

4 . لن نطيل في النقطة الأخيرة، لأنها لا تستوجب ذلك، فبرودون يريد الفوضى وماركس وإنجلز ولينين يريدون برنامجا ثوريا، ينسجم والعملية التاريخية نفسها، إن العنف الثوري أو الثورة الحادة، هي رأس البرنامج الثوري لدى ماركس وإنجلز ولينين، والذي يحاول الفوضويون اقتناصه واقتلاعه من مقدمة هذا البرنامج الثوري.

في ما يخص كومونة باريس، فإن أي متتبع مبتدئ للماركسية اللينينية، لا يمكن أن يفهم القولة الماركسية المشهورة، في سياق مفهوم وإشكالية الدولة، والتي صيغت على أحسن وضوح من قبل ماركس، "الدولة تضمحل"، بكون الدولة المستغلة تضمحل أي دولة الإقطاعي في عصر الإقطاع، أو دولة البورجوازي في عصر العمل المأجور، فهذا العيار من أشكال الدولة محكوم بشيء أساسي، هو الاستغلال الطبقي، وبذلك ليس من المنطقي أن تكون محكومة بالاضمحلال، إنما ب"التحطيم"، وهي تحطم بالثورة البروليتارية الفلاحية، وتبنى سلطة جديدة هي سلطة مجالس العمال والفلاحين، بمعنى دولة جديدة تسعى إلى إلغاء العمل المأجور وتأميم الإنتاج ووسائل الإنتاج عامة .

كما أن المتتبع البسيط أيضا، لا يمكن أن يفهم من مفهوم اضمحلال الدولة، كون الدولة البروليتارية تضمحل عشية الانتصار بدقيقة ونصف، فهذا غير ممكن الحدوث، ولكي نجيب على الإشكال انطلاقا من ماركس و"تلاميذه"، سيكون من الأفيد تفكيك هذا المصطلح الرئيسي في علم الدولة في الماركسية.

ومن المفيد أيضا، أن نذكر أن هذه الكلمة قد سافرت عبر كل لغات العالم (الألمانية /الفرنسية / الروسية / العربية...) ،وهي بهذا تكون قد تطورت إلى أبعد حد ممكن فحسب، واكتسبت عضلات جديدة، إضافة إلى قوتها التي خلقت بها في لغتها الأصلية. بالنسبة للعربية فصيغة اضمحلال تأتي من اضمحل، وهي قياس على كل فعل يقوم بنفسه ولا يقوم به غيره، كأن نقول انكسر الزجاج: فالزجاج قام بالفعل من تلقاء نفسه، واضمحلت الدولة، أي أنها فعلت ذلك من تلقاء نفسها، والمعاني الأقرب إلى هذه الكلمة في اللغة العربية هي: تخبو / تنتفي /

يقول لينين في أطروحة "الدولة والثورة":" البروليتاريا بحاجة إلى الدولة، هذا ما يكرره جميع الانتهازيين، والاشتراكيين الشوفينيين والكاوتسكيين، مؤكدين أن هذه هي تعاليم ماركس، ناسين أن يضيفوا، أولا، أن البروليتاريا برأي ماركس، ليست بحاجة إلا لدولة في طريق الاضمحلال، أي مبنية بشكل تأخذ معه بالاضمحلال، ولا مندوحة له معها من أن تضمحل، وثانيا، أن الشغيلة بحاجة إلى "دولة"، أي إلى البروليتاريا المنظمة بوصفها طبقة سائدة"[24]

الدولة، كديكتاتورية البروليتاريا، تزول تدريجيا، كلما أنجزت مهمة من مهامها تفقد عضوا من أعضائها، وهكذا دواليك حتى تنتفي، ويعتبر البيان الشيوعي هذه المهام أساس حياة وموت البروليتاريا، إنها تولد وتموت في نفس الآن، في مغزى ديالكتيكي تتحول من كم إلى كيف جديد.

24 . لينين فلاديمير "الدولة والثورة ، ومهمات البروليتاريا في الثورة".

1 . تتحول البروليتاريا إلى طبقة سائدة بواسطة استراتيجية ثورية حادة، فتظفر بالديمقراطية.

2 . تحطم البروليتاريا آلة الدولة البورجوازية وتستفيد من السيادة السياسية على البورجوازية.

3 . تبني البروليتاريا نفسها في قوة عالمية مستفيدة من سيادتها السياسية.

4 . تنتزع البروليتاريا السائدة كامل رأس المال بالتدريج من البورجوازية، وتمركز كل أدوات الإنتاج في يد الدولة.

5 . تلغي بذلك كل المظاهر الطبقية والعبودية.

6 . تزول الدولة فاسحة المجال لمجتمع بدون استغلال، بدون طبقات، بدون دولة، تفسح المجال للمجتمع الشيوعي.

برهنت كومونة باريس، باعتبارها درسا عمليا للماركسيين ليختبروا الصراع الطبقي على الأرض عوض النظرية- وبالفعل كانت ثورة الكومونيين الدرس الأول في الممارسة العملية- على أن الدولة البورجوازية لا يمكن الاحتفاظ بها من أجل العمل بها، ولا يمكن للبروليتاريا سوى تحطيم الدولة البرجوازية.

هذا الدرس الذي التقطه ماركس وإنجلز، من الجسامة والخطورة بمكان، حيث أدى بهما إلى مراجعة البيان الشيوعي ذاته، في بعض النقط، والخاصة بالدولة نفسها، على ضوء الخبرة التي استخلصاها من تجربة الثورة في فرنسا، وهذا سبب قولة ماركس: "إن البيان الشيوعي قد شاخ في بعض أماكنه".

أحمد فارس

2017 . 11 . 23